

مجلة إسلامية شهرية

العدد الحادي عشر - ربيع أول ١٤٣٥

الكريسماس جذوره وتاريخيته

هيثم سمير

مقترح دستور ٢٠١٣ مقارنة مع دستور ٢٠١٢

محمد وفيق زين العابدين

قاضٍ بالمحاكم الابتدائية

علم التفسير وسؤال المنهجية

عمرو الشرقاوي

الوحدانية ضرورة عقلية لا مرحلة زمنية

ماهر أمين

لن تحكمنا أمريكا بعد اليوم

حسام أبو البخاري

فك الله أسره

إعادة نشر



هيئة التحرير

خالد بهاء الدين الأزهري

عمرو بسيوني - محمد عبد الواحد

مدير التحرير

معتز رضا زاهر

تصميم وتنفيذ

شركة Active للدعاية الرقمية والإعلان المطبوع

المدونة: http://alhorras.wordpress.com

فيس بوك: facebook.com/AlHorras

تويتـــــــر: twitter.com/ALHorras

البريدالإليكتروني: info@alhorras.net

الموقع الإليكتروني: www.alhorras.net



الحمد لله وحده ..

لا يمكنك أن ترد واقع التجريف الثقافي وضحالة الوعي المنتشرة بين المسلمين اليوم إلى عامل واحد.
الظروف السياسية والاقتصادية، ومناهج التعليم، والأمية التربوية، وخنق الاستبداد للمجتمع ومحاصرته له=كل تلك العوامل وغيرها ساهمت في هذه النتيجة المحزنة والخطيرة في الوقت نفسه.

وساهمت الثورة المصرية والمتغيرات الاجتماعية والسياسية بعدها في زيادة واقع التجريف، وذلك بسبب التداعي المجتمعي تحت وطأة الحروب السياسية التي عاشها الناس خلال العامين الماضيين، خاصة مع انشغال كبرى الحركات الاجتماعية الإسلامية وغير الإسلامية في أتون السياسة الملتهب.

فسيلة المؤمن، الأشياء الصغيرة الفعالة، اجتماع النقط، طلب الفتح بطول الطَرْق، كل تلك المعاني هي ما يفتح للناس أفق الإصلاح رغم ضعف ما بين أيديهم من الإمكانات، وهي في الوقت نفسه ما يقطع عليهم باب العذر؛ إذ لا قعود حينئذ إلا من كسل وعجز.

بين صفحات هذه المجلة ستقابلك مجموعة من الأقلام تكسر الحدود ولا تعرف غير الإسلام رابطة تجتمع عليها؛ لتشترك في هم أساسي واحد هو محور اجتماعهم بقطع النظر عن مواطن اتفاقهم واختلافهم الأخرى؛ إنه هم الثقافة والوعي، وسبل إعادة إخصاب هذه الأرض المجرفة، واستثمار ما فيها من بقايا البذور ومكاثرتها، وتعاهدها بالسهر والري، وقتل ما قد يعرض لها من الآفات التي تريد اغتيالها قبل أن تؤتي أُكُلها.

لم تجتمع هذه النخبة لتحملك على موافقتها الرأي، وإنما لتحرضك على تجويد صناعة الرأي.
لم تجتمع هذه النخبة لتصنع منك نسخة منها بل لعلها لا ترجو شيئًا كرجائها أن تكون نسيج وحدك.
لم تجتمع هذه النخبة لتلقنك أفكارها، وإنما لتقيم لك أمثلة في طرائق إقامة الأفكار؛ لتقيم أنت صروح أفكارك.

الدين والوحي والفقه والوعظ والأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع والتاريخ وكل ما له صلة بتجويد صناعة التفكر ستجدونه بين جنبات هذه المجلة، تعاملوا معه على أنه بذور منثورة، وتابعوا معنا ومع غيرنا ومع أنفسكم مثنى وفرادى، وارتقبوا وقت حصاد ثمار أنفسكم بعد هذا البذر الطويل، وآتوا حقه يوم حصاده، واشكروا لله واعبدوه.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هيئة التحرير



مقترَح دستور ٢٠١٣

مقارنة مع دستور ٢٠١٢

محمد وفيق زين العابدين
قاضٍ بالمحاكم الابتدائية

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، الحمد لله الذي رفع لنا في كل ثغر علمًا، وأجرى لنا في جوار كل بحر ما يضاهيه كرمًا، وجعل في هذه الأمة من المسلمين إلى اليوم من يزيد الناس علمًا ويمحو من الظلمات ظلمًا، أما بعد:

فبعد النقد المتواصل الذي لطالما وجهته «نُخبة لجنة الخمسين» على مدار الشهور الماضية إلى «الجمعية التأسيسية لوضع دستور ٢٠١٢»، والسهام التي نالت من «دستور ٢٠١٢» ما نالت، توقع البعض أن تخرج علينا «لجنة الخمسين» بوثيقة دستورية تكفل الفصل بين سلطات الدولة، وتُكرس لمحاربة الفساد، وضمان الحقوق والحريات فعليًّا.

ما حدث هو العكس تمامًا، فقد أخرجت لنا اللجنة وثيقة تُكرس للطبقية والفساد والاستئثار بالسلطة، وثيقة تتداخل فيها سلطات الدولة على نحو يعطل قيامها بوظيفتها بفاعلية وكفاءة، وثيقة ركزت كل اهتمامها في محو القيم الدينية والعربية بصفة خاصة، وتقليص القيود الأخلاقية بصفة عامة، فقد امتدت يد التعديلات لنصوص لم يرد في حِسبان أكثر المتشائمين أن تمتد يد التعديلات إليها، إما بالتبديل، أو الحذف -في الغالب- دون أي مقتضى أو مبرر معقول المعنى أو حتى غير معقول المعنى، ويُمكننا أن نقسم هذه النصوص لخمسة أقسام:

قسم متعلق بالقيم الدينية والأخلاق العامة، وقسم متعلق بالثقافة واللغة العربية، وقسم متعلق بالفساد والانحراف الوظيفي، وقسم متعلق بتنظيم سلطات الدولة والفصل بينها، والمادة الثانية وما يتعلق بها من نصوص.

وجميع هذه النصوص المستبدلة أو المحذوفة- مؤيدة بالشرع، إما نصًّا، أو بالسياسة الشرعية المعقولة التي أخطأ البعض فظنها ليست من أبواب الشريعة؛ إذ كل ما قرب إلى الصلاح وأبعد عن الـفـسـاد وإن لم يأت به نص فهو من الشرع، ومن ضيع ذلك فقد ضيع الحقوق وعطل الحدود وأعان على الفساد، نقل العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله في [إعلام الموقعين (٤ / ٣٧٢)] أن ابن عَقيل رحمه الله ردّ على بعض العلماء الذين يقولون «لا سياسة إلا ما وافق الشرع» بقوله: «السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يُشرّعه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا نزل به وحي، فإن أردتَ بقولك: لا سياسة إلا ما وافق الشرع، أي: لم يُخالِف ما نطق به الشرع؛ فصحيح، وإن أردتَ: ما نطق به الشرع؛ فغلط، وتغليط للصحابة» اهـ.

ثم قال ابن القيم مُؤيدًا قول ابن عقيل رحمهما الله: «هذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك في معترك صعب، فرّط فيه طائفة، فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرّءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدّوا على أنفسهم طرقًا صحيحة من الطرق يعرف بها المحِق من المبطل، وعطلوها، مع علمهم وعلم الناس بها أنها أدلة حق» اهـ.

ومن هنا يُعلم كيف حُوربت الشريعة، ليس بمنع تطبيقها فحسب؛ بل بتقريب الفساد والإعانة عليه على نحو ما سيأتي.

أولًا: القيم الدينية والأخلاق العامة:

تم حذف نصوص عديدة من الواردة في دستور ٢٠١٢ لأسباب «غير مبررة»؛ لتعلقها بالقيم الدينية والأخلاق والآداب العامة، ابتداءً بحذف المادة (١١) التي خصَّصها دستور ٢٠١٢ لفرض واجب الحفاظ على الأخلاق والآداب على الدولة، وحذف فقرة ترسيخ القيم الأخلاقية للأسرة، التي كانت تنص عليها المادة (١٠)، وحذف المادة (٤٤) الخاصة بحظر الإساءة أو التعريض بالرسل والأنبياء.

وفي مادة حفظ حرية الاعتقاد، استُبدلت كلمة (مُطلقة) بــ(مصونة)، فمن ظنَّ ألا فارقَ بينهما؛ فقد أساء الفهم، فالفرق بينهما كبير، لأن (مصونة)؛ محفوظة، تكفل الدولة حمايتها، والدولة لا تكفل حماية إلا ما لم يتعارض مع النظام العام والآداب في المجتمع، فإذا أُريد غير ذلك؛ فقد لزم النص عليه وهو ما فعلَته «لجنة الخمسين» حين استبدلت (مُطلقة) بـ(مصونة).

حرية الاعتقاد (مُطلقة)؛ من كلّ قيد، واللفظ العام يظل على عمومه، والعموم مقتضاه: أن النظام العام والآداب لا يُقيِّدان «حرية الاعتقاد».

كما تم حذف فقرة «مراعاة أحكام الشريعة» فيما يتعلق بـ «مساواة المرأة بالرجل» في المادة (١١) المستحدثة في مشروع ٢٠١٣ والتي نص عليها دستور ١٩٧١ مشمولةً بقيد مراعاة أحكام الشريعة، ليُمكن بذلك -بعد حذف هذه الفقرة- إلغاء أي حكم من أحكام «الأحوال الشخصية» مما لم يكن يُتصور أن تمسه يد أو يناله طعن، والنص المشار إليه كان يُمكن أن يكون نصًّا منصفًا، إذا علّق مساواة المرأة بالرجل في الحقوق؛ بمساواتها مع الرجل في الواجبات، وهو ما لم يحدث ولن يحدث، لأن المساواة في الواجبات غير ممكنة، بل مستحيلة!

نحن نُقر بأن المرأة باعتبارها شخصية إنسانية فهي ذات قيمة مساوية للرجل تتمتع بحقوق وتتحمل مسئولية وواجبات أخلاقية وإنسانية، وهذا مؤكد بنصوص الشرع والوقائع التاريخية، كما أنه واقع في المجتمع المصري بغير حاجة إلى النص عليه في الدستور، ولا أدل على ذلك من قيام النساء في كل فترة من فترات التاريخ المصري لاسيما مؤخرًا- بدورهن في التعبير عن رأيهن، ومناهضة كلّ ما يرون فيه تعديًا على الحقوق والحريات، أما ما أورده النص المذكور من «مشروع دستور ٢٠١٣» فهو نص معيب مُخالف للشرع والمنطق والمبادئ العامة للقانون، لأن الأمر فيه يتعلق بالمساواة المطلقة في الوظائف والأدوار!

من البديهي أن لأي إنسان حقوقًا، لكن عليه واجبات، فإذا اختلفت الواجبات المُلقاة على عاتق كل منا اختلفت الحقوق ولا بد، أما أن نتساوى في الحقوق مع تفاوت واجباتنا فهذا عين الظلم والإجحاف.

ومع حذف كل القيود الدينية والأخلاقية؛ وضعَتْ قيود أخرى معاكسة شديدة الصرامة، على وقف أو مصادرة الأعمال الفنية والأدبية والفكرية، أو محاكمة مُبدعيها أو حبسهم بعقوبات سالبة للحرية، في المادة (٦٧)، ليُطلق لهم العنان في الانحراف دون أي رادع، وكذلك الحال بشأن حرية الصحافة والإعلام في المادة (٧١)، فبموجب هاتين المادتين صارت حريات الإبداع الفني والأدبي والفكري وحريات الصحافة والنشر والإعلام حريات مطلقة مُحصَّنة، بلا ضوابط شرعية ولا أخلاقية، طالما لم تُقيدها نصوص الدستور ذاته بضابط شرعي أو أخلاقي ما.



ولا يُظن أن نص المادة الثانية وسنأتي لها ولتفسيرها في ظل مشروع دستور ٢٠١٣ يُمكن أن يُمثل أي فارق باعتبارها حاكمة على مواد الدستور، لأن المادة الثانية حاكمة على القوانين مع قيود خاصة وضعتها المحكمة الدستورية العُليا أما أيّ تناقض بينها وبين مواد الدستور كما هو حاصل في شأن المواد (١١)، (٦٤)، (٦٧)، (٧١) وغيرها؛ فإنه يُخلِّف معضلات قانونية مُؤدية ولا بد إلى إفراغ هذه المادة من مضمونها فيما يتعلق بأحكام هذه المواد!

فالمعلوم أنه من غير المقبول تعارض أي نص قانوني مع نص دستوري، أما لو تعارض نص دستوري مع آخر دستوري، فالمنهج القانوني المستقر عليه فقهًا وقضاءً أنه لو تعارض في قانون واحد أو قانونين مختلفين نصان؛ فإن النص الخاص يُقيِّد النصَّ العام - وهي ذات القاعدة المعمول بها في أصول الفقه، وأعملتها المحكمة الدستورية العُليا (١ لسنة ٢٤ ق، ٤ لسنة ١٤ ق، ٥٧ لسنة ٤ ق) -، وبتطبيق هذه القاعدة على النصوص الدستورية المتعارضة في الدستور؛ فالتغليب قطعًا سيكون من الناحية القانونية- للمواد المذكورة، على حساب المادة الثانية، لأن نصّ المادة الثانية نصٌّ عامّ، وهذه النصوص نصوصٌ خاصة تُقيِّد النصَّ العام.

ثانيًا: الثقافة واللغة العربية:

فأول تعدٍّ على اللغة العربية وثقافتها كان بحذف المادة (١١)، الخاصة برعاية الدولة للأخلاق والآداب و... والثقافة العربية! وهو أمر غريب؛ لأن المادة ليس فيها أي حقوق تمييزية، أو تفضيل عنصري لأي فئة من فئات المجتمع، مما يُبرِّر به الليبراليون - في الغالب الأعم - مطالباتهم بحذف بعض المواد الدستورية، أو إجراء بعض التعديلات القانونية.

كما تم حذف المادة (١٢)، الخاصّة بتعريب التعليم والعلوم والمعارف دون وجود أي مقتضٍي!

وأغرب من هذا؛ المادة (٢١٥) المنصوص عليها في دستور ٢٠١٢، والتي استُبدلت بالمادة (٢١١) في مشروع ٢٠١٣، الخاصة بواجبات المجلس الوطني للإعلام، أُبقيت على حالها إلا بشأن عبارة واحدة فيها تم حذفها، وهي عبارة «الحفاظ على اللغة العربية»!

وبمقتضاها صار المجلس الوطني للإعلام معنيًّا بالحفاظ على كل ما تُقرره المادة من واجبات، إلا فيما يخص اللغة العربية، فقد بات غير معني بالحفاظ عليها!

ولم يُكتفِ بهذا، فقد تم حذف المادة (٢١٤) بشأن المعايير الوطنية لجودة التعليم والبحث العلمي.

والمادة (٦٠) من دستور ٢٠١٢ كانت تنص على اعتبار «اللغة العربية مادة أساسية في مراحل التعليم المختلفة بكل المؤسسات التعليمية»، فجاء مشروع ٢٠١٣ في مادته المقابلة لهذه المادة وهي المادة (٢٤) لينص على أن «اللغة العربية و... مواد أساسية في التعليم قبل الجامعي الحكومي والخاص»، وبموجب هذا التعديل تم العدول عن توجه دستور ٢٠١٢ الذي اعتبر «اللغة العربية» من المواد الأساسية في التعليم الجامعي، الحكومي والخاص!

ثالثًا: الفساد والانحراف الوظيفي:

فقد تم تحذف المادة (٢٠٤) التي نص عليها دستور ٢٠١٢، والتي كانت تدعو إلى «إنشاء مفوضية وطنية لمكافحة الفساد».

وكذلك حُذفت الفقرة الخاصة بقيود الملكية الخاصة، التي تمنع «الانحراف والاحتكار» في المادة (٢٤).

وكذا المادة (٢٣٢) التي عزلت قيادات الحزب الوطني من ممارسة العمل السياسي.

والمادة (٢٢٧) الخاصة بتحديد الحد الأقصى لولاية المناصب وتاريخ بدايتها ونهايتها، ومن ثمَّ فلم يعد هناك أي إلزام دستوري يمنع تداول السلطات والمناصب في مختلف الجهات والهيئات، عكس ما كان عليه الحال في ظل دستور ٢٠١٢.

وتم حذف عدد من المواد من دستور ٢٠١٢، التي كانت تُلزم سلطات الدولة وحكومتها بإنشاء هيئات تخصصية مستقلة لدعم بعض الأنشطة؛ كالمادة (٢١٢) التي كانت تُلزم بإنشاء الهيئة العُليا لشئون الوقف، والمادة (٢١٣) التي كانت تُلزم بإنشاء الهيئة العُليا لحفظ التراث الحضاري والثقافي.

رابعًا: تنظيم سلطات الدولة والفصل بينها:

الوظيفة الرئيسية للدساتير هي تنظيم سلطات الدولة، والفصل بينها، ووضع حدود كل سلطة؛ حتى لا تتغول على بعضها، ولا يُمكن لها أن تهضم حقوق الأفراد وحُرياتهم؛ إذ حماية الحقوق والحُريات تأتي تبعًا للفصل بين السلطات وتنظيمها ورسم حدودها.



لجنة الخمسين اهتمت في مشروع دستور ٢٠١٣ بشكل كبير جدًّا بـ«الشعارات» و«الحِكم» التي تتغنى بحقوق الإنسان والحيوان، حقوق المسلم والمسيحي، المغنّي والفنان والرسام ولاعب الكرة، قناة السويس والأهرامات وأبي الهول ، وغير ذلك من حقوق لا تُسمن في الواقع ولا تغني من جوع، مُغفِلةً -بقصد أو بغير قصد- تنظيم سلطات الدولة والفصل بينها، بل تداخلت السلطات القضائية والتنفيذية والتشريعية في بعضها، على نحو لا يُمكن معه لأي سلطة أن تُؤدي وظيفتها بفاعلية وكفاءة!

فالبرلمان يرجع عند سنّ بعض التشريعات للمحكمة الدستورية كما تنص المادة (١٩١).

والوثيقة الدستورية تُلزم ولأول مرة في التاريخ الدستوري- البرلمان بإصدار قوانين معينة دون غيرها؛ كقانون بناء الكنائس في المادة (٢٣٤)، وقانون تنظيم ندب القضاة في المادة (٢٣٨)!

ولرئيس الدولة بموجب المادة (١٠٢) تعيين عدد من أعضاء البرلمان لا يزيد عن ٥ ٪، وهي نسبة تُمكنه من تعيين عدد يزيد حتمًا عما ستحصده بعض الأحزاب من مقاعد البرلمان بالانتخاب، بما مؤداه أن رئيس الدولة بهذا النص قد أوجد لنفسه «لوبي» أقوى من بعض الأحزاب داخل البرلمان بنص الدستور.

وقد توسع «مشروع دستور ٢٠١٣» في سلطات رئيس الدولة، لتصل لأكثر من خمس وعشرين سلطة، بالمقارنة بنحو عشرين سلطة في «دستور ٢٠١٢»، وليس هذا فحسب بل أُلغيت كل الفقرات والمواد التي تحد من سلطات رئيس الدولة، سواء فيما يتعلق بتعيين رئيس الحكومة، أو من يتولى الوزارات السيادية -دون وزير الدفاع الذي تختاره المؤسسة العسكرية بغير سلطان عليها كما قررت المادة (٢٣٣)- أو تعيين أعضاء البرلمان، أو حل البرلمان المُنتخب، وغير ذلك مما نص عليه «دستور ٢٠١٢ م» لتصنع الوثيقة بذلك من مصر دولة لـ«فراعنة» جُدد.

وعلى مستوى السلطة القضائية تم التوسع في المحاكمات العسكرية والاستثنائية بموجب المادة (٢٠٣)، وتحرير حالة الطوارئ من بعض القيود الدستورية؛ إذ تم حذف فقرة استفتاء الشعب على مد حالة الطوارئ إذا تجاوزت مدتها ستة شهور كما نصت المادة (١٤٨).

وفُرضت معايير محددة في شأن تعيين القُضاة، دون مراعاة الكفاءة والأهلية، تحت مسمى «مساواة المرأة بالرجل» في المادة (١١)، بما يُهدر طاقات الشباب ويُضيع الكفاءات العلمية.

خامسًا: المادة الثانية وما يتعلق بها من نصوص:

أبقى دستور ٢٠١٢ الصادر في ٢٥ ديسمبر ٢٠١٢ على المادة الثانية، والتي نصت على أن: «الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع»، غير أنه أضاف تفسيرًا لها في المادة (٢١٩) منه في باب (الأحكام الختامية والانتقالية)، والتي جرى نصها على أن: «مبادئ الشريعة الإسلامية تشمل أدلتها الكلية، وقواعدها الأصولية والفقهية، ومصادرها المُعتبرة في مذاهب أهل السنة والجماعة».

والفائدة التي كانت ستحققها هذه المادة هي: التحرر من القيد الذي أعملته المحكمة الدستورية بشأن النصوص القانونية التي تخضع لحكم المادة الثانية، وهي -كما عبرت المحكمة الدستورية- النصوص المخالفة للأحكام الشرعية القطعية في ثبوتها ودلالتها معًا، باعتبار أن (مبادئ الشريعة الإسلامية) باتت تشمل بشكل قاطع الأدلة الكلية والقواعد الأصولية والفقهية والمصادر المُعتبرة في مذاهب أهل السنة والجماعة.

لجنة الخمسين في «مشروع دستور ٢٠١٣م» رأت حذف المادة (٢١٩) المُفسرة لعبارة (مبادئ الشريعة الإسلامية)، وزادت في ديباجة مشروع الدستور: «وأن المرجع في تفسيرها هو ما تضمنته مجموع أحكام المحكمة الدستورية العُليا في هذا الشأن».



واستنادًا لهذه الزيادة في (الديباجة) ادعى البعض بأن مشروع دستور ٢٠١٣ من شأنه توسيع نطاق تطبيق الشريعة، والتحرر من القيود التي أعملتها المحكمة الدستورية العليا على النصوص القانونية الخاضعة لحكم المادة الثانية، وأوردوا في شأن ذلك أحكامًا صادرة عن المحكمة الدستورية العليا، زعمًا بأنها تعتبر الإجماع والاجتهاد من مبادئ الشريعة المنصوص عليها في المادة الثانية.

وهذا الزعم باطل بما استُدل به له، وذلك لعدة أسباب:

أولًا: أن (الديباجة) ليس لها أي قيمة قانونية إلزامية، بل القيمة القانونية للنصوص الدستورية هي في النصوص ذاتها، والديباجة ما هي إلا تمهيد أو مقدمة لا يُمكن الاحتجاج بها في شأن تفسير أي نص تشريعي، ولذلك؛ فالخطأ فيها، أو مخالفتها لصريح النصوص؛ غير معتبر ولا يضر، فهي أقل شأنًا من ديباجة الأحكام.

ومع ذلك؛ فقضاء النقض مستقر على أن الخطأ فيها «لا يعيب الحكم؛ إذ هي خارجة عن مواضع استدلال الحكم».

والعُمدة في تفسير تلك النصوص هي بما ورد في الفقرة الأولى من المادة (١٩١) من الدستور: «تتولى المحكمة الدستورية العليا دون غيرها الرقابة القضائية على دستورية القوانين واللوائح وتفسير النصوص التشريعية»، فلا اجتهاد ولا اعتبار لما ورد بالديباجة مع صراحة نص المادة المذكورة.

وقد أكد مشروع ٢٠١٣ على هذا المعنى بحذف الفقرة الأخيرة من المادة (٤) من دستور ٢٠١٢ والتي كانت تنص على أن: (يُؤخذ رأي هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف في الشئون المتعلقة بالشريعة الإسلامية)، لتنفرد بذلك المحكمة الدستورية العُليا دون غيرها بمهمة تفسير المراد بالـ(مبادئ) دون مُعقب.

أما المادة (٢٢٧) بشأن اعتبار (الدستور بديباجته وجميع نصوصه نسيجًا مترابطًا وكلًا لا يتجزأ) فهي مادة مطاطة، تُحيل لنصوص غير ملزمة لا يُمكن أن تنتقل لمرتبة النصوص الدستورية، طالما لم تندرج ضمن مواد الدستور، بالإضافة إلى أنها لن تُمثل أي فارق في ظل صريح نص المادة (١٩١).

ثانيًا: وبفرض أن (الديباجة) لها قيمة قانونية إلزامية -والفرض ليس بحقيقة-؛ فإن الديباجة المشار إليها تُؤكد معنى أن المقصود بـ(المبادئ) هي الأحكام قطعية الثبوت قطعية الدلالة ليس أكثر ولا أقل!

لأن العبرة كما أوضحَتْ الديباجة هي بالنظر لـ(مجموع أحكام المحكمة الدستورية العُليا في هذا الشأن)، أي: لا عبرة لحكم دون غيره، وأحكام الدستورية العُليا استقرت استقرارًا تامًّا على أن المقصود بـ (المبادئ) هي (الأحكام قطعية الثبوت قطعية الدلالة)، ولا عبرة بعد هذا بأي حكم شاذ -بفرض وجوده- يخرج عن المعنى الذي استقرت عليه الأحكام في مجموعها، لأن الشاذ لا حُكم له، ولأن رفع التناقض الحاصل بين الحكم الشاذ وباقي أحكام الدستورية العُليا يقتضي إهمال الحكم الأول؛ لأن الجمع بينه وبين باقي الأحكام غير ممكن، وقد أكد مشروع ٢٠١٣ على هذا المقصد بحذف المادة (٢١٩) التي نص عليها دستور ٢٠١٢.

ثالثًا: لا يوجد أي حكم صادر عن المحكمة الدستورية العُليا نهائيًّا وبصورة قاطعة، يعتبر (الإجماع) من (مبادئ) الشريعة الإسلامية، لا صراحةً ولا ضمنيًّا!

والأحكام التي أوردها أصحاب هذا الزعم وأُثبتت في مضابط لجنة الخمسين الطعن رقم ٦ لسنة ٩ ق والطعن رقم ١١٦ لسنة ١٨ ق -؛ إنما أقامها الطاعنون على عدة أسباب، من بينها أن الإجماع من مبادئ الشريعة، لكن المحكمة عندما قضت بعدم دستورية النصوص المطعون عليها لم تستند في حيثيات حُكمها على سبب (الإجماع) الذي أورده الطاعنون، ولم تتعرض له لا من قريب ولا من بعيد، وإنما بنت حكمها على أسباب أخرى -منها الحق في الملكية والعدالة الاجتماعية في توزيع الثروات وغير ذلك- كما هو واضح جدًّا في حيثيات الحُكمَين.

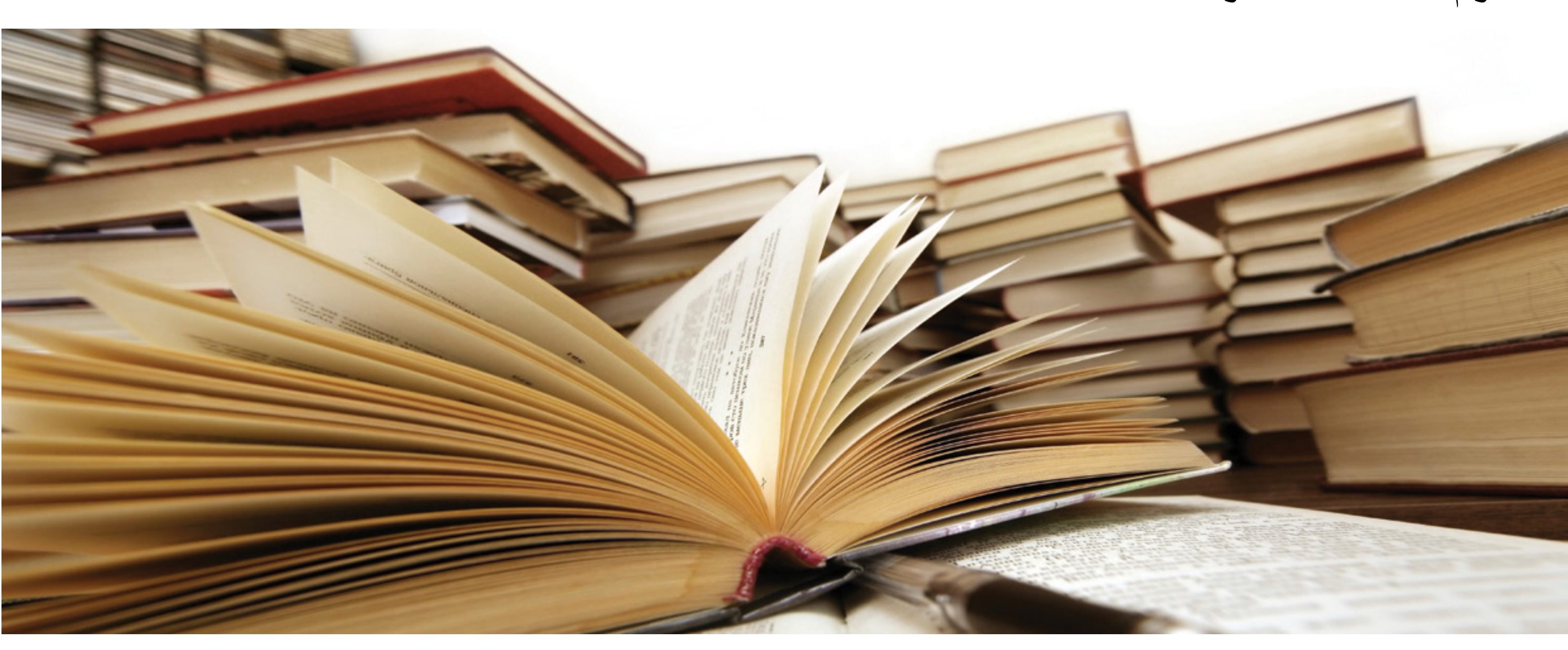
فقد ورد في الطعن رقم ٦ لسنة ٩ ق، الصادر بجلسة ١٨ مارس ١٩٩٥: «وحيث إن المدعين ينعون على النص المطعون فيه مخالفته المادة الثانية من الدستور، تأسيسًا على أن فقهاء الشريعة الإسلامية مجمعون على أن عقد الإيجار لا يكون إلا موقوتًا فلا يتأبد، ولا يجوز بالتالى حمل المؤجر على تأجير العين بعد انتهاء مدة إجارتها، ولا أن يمتد هذا العقد إلى شخص يُعد غريبًا عن الإجارة ولا يتصور أن يقحم عليها ...».

ثم أورد الحكم في الأسباب التي استند إليها في القضاء بعدم الدستورية: «وقد أخل النصُّ المطعون فيه كذلك بالحدود التى ينبغي أن يتم تنظيم الملكية فى نطاقها، وجاء مخالفًا بالتالي لأحكام المواد (٧)، (٣٢)، (٣٤) من الدستور».

أما الطعن رقم ١١٦ لسنة ١٨ ق الصادر بجلسة ٢ أغسطس ١٩٩٧ فإنه لم يستند أصلًا للمادة الثانية كليةً في القضاء بعدم الدستورية، وقد خلُص في نهايته ومنطوقه: «... وحيث إن النص المطعون فيه لم يخالف الأحكام المنصوص عليها فى المواد (٧) و(٣٢) و(٣٤) و(٤٠) من الدستور؛ فلهذه الأسباب حكمت المحكمة بعدم دستورية ما نصت عليه المادة ٢٩ من القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٧ في شأن تأجير وبيع الأماكن وتنظيم العلاقة بين المؤجر والمستأجر».

رابعًا: النص على أن (الاجتهاد) من مبادئ الشريعة لم يرد في أي حكم إلا للتأكيد على أن مبادئ الشريعة هي (الأحكام قطعية الثبوت قطعية الدلالة)، وما دون ذلك من أحكام الشريعة فإنه إنما يقبل الاجتهاد بدون أي التزام شرعي، لا من القرآن ولا من السُّنة ولا من الإجماع ولا أقوال الصحابة ولا مذاهب الفقهاء.

وهذا صريح نصوص أحكام المحكمة الدستورية العُليا، فالاجتهاد المقصود في قضاء الدستورية -كما هو واضح جدًّا في أحكامها- هو اجتهاد (البرلمان) دون غيره باعتباره السلطة المعنية بالتشريع -وليس اجتهاد الفقهاء ولا حتى القضاة-، والاجتهاد بهذه المثابة مانع من الوقوع في حَومة المخالفة الدستورية. [مجموعة أحكام الدستورية، (الطعن رقم ١٤ لسنة ٢١ ق الصادر بجلسة ١١ / ٥ / ٢٠٠٣)]



خامسًا: مشروع دستور ٢٠١٣ لم يتضمّن بحال من الأحوال أي إلزام بمراجعة التشريعات السابقة فيما يتعلق بمدى مطابقتها للشريعة الإسلامية، بل القاعدة القانونية المستقر عليها في قضاء الدستورية العُليا أن: العبرة في النصوص هي من تاريخ العمل بها، ولا عبرة للقيد الوارد على المادة الثانية إلا من تاريخ تعديله. [مجموعة أحكام الدستورية، (الطعن رقم ٢٨ لسنة ٢٠ ق الصادر بجلسة ٢/ ١٠/ ١٩٩٩)]

وقد أيد مشروع دستور ٢٠١٣ هذا النظر بموجب نص المادة (٢٢٤) منه، والتي نصت على أن: «كل ما قررته القوانين واللوائح من أحكام قبل صدور الدستور يبقى نافذًا، ولا يجوز تعديلها ولا إلغاؤها، إلا وفقًا للقواعد والإجراءات المقررة للدستور، وتلتزم الدولة بإصدار القوانين المنفذة لأحكام هذا الدستور».

وبموجب هذا النص: تأكد الالتزام الواقع على عاتق السلطة التشريعية في الدولة، من وجوب مراعاتها الأحكام الخاصة بمشروع دستور ٢٠١٣ ومنها نص المادة الثانية في شأن القوانين اللاحقة في صدورها على الدستور، دون أن يمتد سلطان النصوص الدستورية إلى ما سبق من قوانين ولوائح قبل العمل بهذا الدستور.

أما ما قيل بشأن الحكم الخاص بالفوائد البنكية رقم ٢٠ لسنة ١ ق الصادر بجلسة ٤ مايو ١٩٨٥ -والمُثبت بمضابط (لجنة الخمسين)، والمزعوم أنه ألزم بمراجعة التشريعات السابقة على التعديل الدستوري للمادة الثانية في مايو ١٩٨٠-؛ فهذا الحكم حُجة على من زعم لا له، لأن الحكم المشار إليه وبعدما عرض لتقرير اللجنة العامة فى مجلس الشعب المقدم بجلسة ١٥ سبتمبر سنة ١٩٨١ -والذي انتهى فيه البرلمان إلى عدم جواز إصدار أي تشريع في المستقبل يُخالف أحكام الشريعة الإسلامية وضرورة إعادة النظر في القوانين القائمة قبل العمل بدستور سنة ١٩٧١ وتعديلها بما يجعلها متفقة مع أحكام الشريعة الإسلامية-؛ فإن المحكمة الدستورية العُليا لم تأخذ بما ورد في التقرير المشار إليه، وردّت عليه في ذات الحكم بقولها:

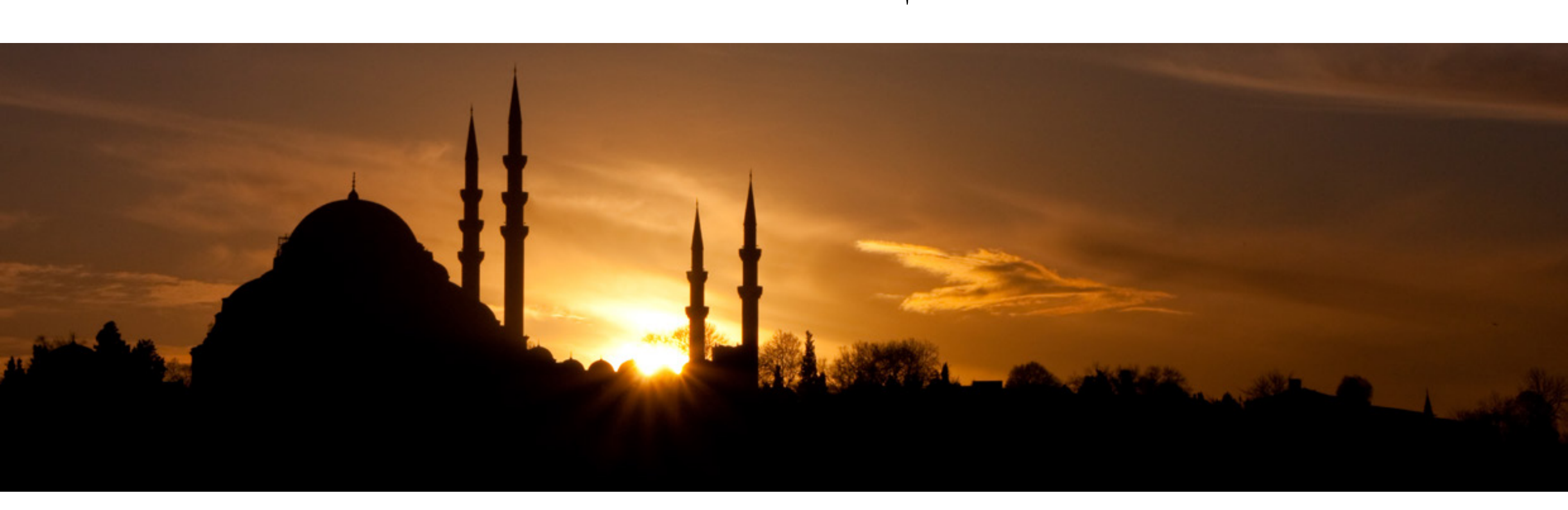
«لما كان ذلك وكان إلزام المشرع باتخاذ مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع على ما سلف بيانه، لا ينصرف سوى إلى التشريعات التي تصدر بعد التاريخ الذي فرض فيه الإلزام، بحيث إذا انطوى أي منها على ما يتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية يكون قد وقع في حومة المخالفة الدستورية، أما التشريعات السابقة على ذلك التاريخ فلا يتأتى إنفاذ حكم الإلزام المشار إليه بالنسبة لها، لصدورها فعلًا من قبله، أي في وقت لم يكن القيد المتضمن هذا الإلزام قائمًا واجب الإعمال، ومن ثمَّ فإن هذه التشريعات تكون بمنأى عن إعمال هذا القيد وهو مناط الرقابة الدستورية».

وكلام المحكمة الدستورية واضح لا يحتاج إلا أدنى تأويل، يُؤكد هذا النظر أنها انتهت إلى رفض الدعوى، ولو كان ما ادعوه صحيحًا لكانت المحكمة قد قضت بقبول الدعوى والقضاء بعدم دستورية المادة (٢٢٦) من القانون المدني، وهو ما لم يقع.

سادسًا: التناقض الحاصل بين المادة الثانية وبعض مواد الدستور كالمواد (١١)، (٦٤)، (٦٧)، (٧١)- يُخلِّف معضلات قانونية، مُؤدية ولا بد إلى إفراغ هذه المادة من مضمونها فيما يتعلق بأحكام هذه المواد،

فالمعلوم أنه من غير المقبول تعارض أي نص قانوني مع نص دستوري، أما لو تعارض نص دستوري مع آخر دستوري، فالمنهج القانوني المستقر عليه فقهًا وقضاءً كما سبق أنه: لو تعارض في قانون واحد أو قانونين مختلفين نصان فإن النص الخاص يُقيد النص العام-، وهي ذات القاعدة المعمول بها في أصول الفقه وأعملتها المحكمة الدستورية العُليا (١ لسنة ٢٤ ق، ٤ لسنة ١٤ ق، ٥٧ لسنة ٤ ق).

وبتطبيق هذه القاعدة على النصوص الدستورية المتعارضة في الدستور - ومن بينها المواد (١١)، (٦٤)، (٦٧)، (٧١) وغيرها مع المادة الثانية - فالتغليب يكون للمواد المذكورة على حساب المادة الثانية، لأن نص المادة الثانية نص عام، وهذه النصوص نصوص خاصة تُقيّد النصَّ العام.



وحاصل القول: إن عبارة (مبادئ الشريعة) الواردة في المادة الثانية بوضعها القائم في (وثيقة لجنة الخمسين)؛ لا يعدو المقصود منها: (الأحكام قطعية الثبوت قطعية الدلالة معًا)، كما كان عليه الحال في ظل دستور ١٩٧١ المُعدل في ٢٢ مايو ١٩٨٠، ولا تنصرف بحال من الأحوال إلى القوانين المسنونة قبل تعديل المادة في التاريخ المذكور - والتي تشمل قوانين العقوبات، والإجراءات، والمرافعات، والمدني، والإثبات، وإيجار الأماكن، وغير ذلك من قوانين مهمة - وذلك حسبما استقرّت عليه أحكام المحكمة الدستورية العُليا!



الإنسان يكلم نفسه!

تلك حقيقة واقعة، ليس شرطًا أن يكون كلامًا باللسان لكنه حديث النفس الداخلي الذي لا يخلو منه إنسان، أسئلة وإجابات تطرح، آمال وأحلام تتشكل، أحزان وذكريات تسترجع، أفكار وخطرات، لمحات ولفتات، صرخات وهمسات، تمر جميعها بالذهن ولا يخلو منها يوم من أيام عمر الإنسان القصير. مشاعر متباينة تضطرم داخل النفس؛ غضب وفرح، كره وحب، وأحيانًا حقد وغل وحسد!

خليط رهيب من كل ما سبق من الكلمات والعبارات تتشاجر أحيانًا، وتتضافر أحيانًا أخرى، وتتجمل أحيانًا، وتكذب على بعضها، وقد تتراشق وتتكشف فاضحة نفسها أمام نفسها؛ لكنها في النهاية تظل داخل صدور لا يعلم ذاتها إلا الله، ويظل اضطرامها داخل النفس عاملًا مهمًّا من عوامل إكمال الحياة.

نعم، هذا الحديث يعتبر في الحقيقة من أهم وسائل العون واستمرار المسير في رحلة العيش، تخيل لو أنها كانت نفسًا صامتة لا تتحدث ولا تتجاوب ولا تلوم أو حتى تبرر، حينئذ لن تكون نفس إنسان، ستكون في تلك الحالة نفسًا مصمتة ويكون صاحبها أشبه بـ(الروبوت) أو الإنسان الآلي، وليست هذه هي النفس المطمئنة التي ذكرت في القرآن بل هي نفس متحجرة جامدة.

أو تخيل العكس.. نفس متجبرة متسلطة تبرز كل عيب و(تبروزه) في إطار ظاهر، وتجلد صاحبها عليه باستمرار، موجهة إليه شتى أنواع الإهانات والبذاءات، إنها حينئذ نفس كئيبة مدمرة، وليست هذه هي النفس اللوامة المحمودة بل هي نفس جلادة سادية تهوى العذاب والتعذيب؛ لكن أغلب الأنفس ليست كذلك.

أغلب الأنفس تحدث نفسها حديثًا مختلفًا، تستطيع معه العيش والتعايش مع نقصها وزللها وخطئها؛ فإن لم تتعاظم جدًّا فيكون حديثها مع نفسها كله تعظيمًا ومدحًا وتمجيدًا، كما في حال الأنفس المغرورة المتكبرة لأولئك الذين يرون أنفسهم هدية ينبغي على البشرية أن تفرح بكل سكنة من سكناتهم، وتسعد بكل حركة تصدر منهم؛ فإن جل النفوس الباقية تصل في مرحلة ما إلى التبرير أو التسويغ أو التمرير لما تفعله من أخطاء أو خطايا.

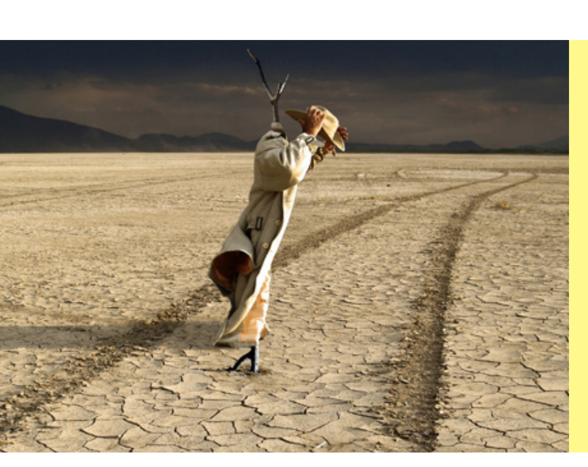
حتى لو صارحت نفسها بالخطأ ولامت نفسها عليه وربما تابت عنه (وتلك هي النفس الصالحة اللوامة) فإنها في النهاية لا بد أن تعبر وأن تتجاوز ذلك الخطأ أو الخطيئة لتكمل الحياة، فتحدث نفسها حينئذ بالرجاء والأمل في الرحمة، وربما تزين أحيانًا ما حدث بدعاوى الاضطرار والضعف الإنساني، أو تستدعي نماذج المخطئين من هنا أو هناك؛ لترى نفسها مثلهم أو أفضل حالًا منهم.

المهم أنها ستصل إلى اتفاق في هذا الحوار الداخلي يجعلها تكمل، ربما يكون اتفاقًا سديدًا موفقًا يذهب بها إلى راحة النفس الصالحة المطمئنة، وربما تكون اتفاقيات مبنية على الكذب والتجمل الذي تلجأ إليه كما قلنا لتستطيع الإكمال. المحصلة النهائية أن الكل يتحدث مع نفسه ويحاورها، ويصل معها إلى اتفاق ما، وهذا الحوار لا يسمعه أو يعلمه أحد غيره إلا الله.

لكن حينما تتجاوز تلك المفردات حاجز الصدور، وتخرج إلى الملأ لتتفاعل مع بعضها البعض عيانًا بيانًا =فإن ذلك مؤشر خطير؛ بل ربما يعده البعض نوعًا من الجنون، تخيل واحدًا يمشي يكلم نفسه، يتشاجر معها، يلومها ويبوخها؛ فترد نفسه عليه بتقريع مقابل، صوتهما يعلو على بعضهما البعض، الخناقة تشتد بينه وبين نفسه، ثم يعود فيمدحها ويثني عليها ويمجد أفعالها أو يبررها ويسوغها. ماذا ستقول حينئذ عنه؟ جن جنونه، فقد عقله، أعصابه أنهكت وخرج عن شعوره، وربما كل ذلك.

للأسف، هذا النموذج الجنوني هو الغالب على واقع العمل العام هذه الأيام، الكل تقريبا يكلمون أنفسهم، يخاطبون قواعدهم، لا تكاد تجد أحدًا يخاطب إلا أتباعه، أو أحدًا يسمع إلا موافقيه، ولا أحد تقريبًا مستعد لتغيير رأيه، أو خلع النظارة التي يزوده بها متبوعه ويحرص تمام الحرص على أن يظل مرتديًا إياها، لا يرى الدنيا إلا من خلال عدساتها، لست أعني واحدة من تلك النظارات التي نعرفها اليوم سواء الطبية منها أو الشمسية، إنما أعني تلك النظارة التي يرتديها المرء فتصبغ حياته ورؤيته وفهمه بلونها، فلا يرى الأشياء إلا من خلالها، ولا يحكم على الأمور إلا بقتامتها التي تحجب عنه تفاصيل وحقائق واضحات بينات لكل من لم يرتديها، تلك النظارة التي تتعاظم وتتضخم أحيانًا لتتحول دون أن يشعر مرتديها إلى سجن كبير، لا يرى الدنيا إلا من خلال نافذته الضيقة التي يقبع أسيرًا خلف قضبانها الباردة.

وأسر الأفكار كثيرًا ما يكون أشد إحكامًا من أسر الأسوار، ولربما تكون قضبان الجهل والتأول أصلب ألف مرة من قضبان السجون، لكن سجين الفكرة ربما لا يدرك أبدًا أنه سجين! بل قد يظل حبيسًا خلف قضبان تلك الأفكار التي تتملكه، دون أن يدرك -ربما لأعوام- أنه كان ينظر إلى الدنيا من خلال نافذة زنزانة تلك الفكرة أو من خلف زجاج نظارتها المعتمة، ويصم أذنيه إلا عن صوت من ألبسه إياها، صوت نفسه.



وقد تملك بعض الأفكار والتصورات والمشاعر على المرء حياته، فلا يتصور العيش إلا من خلالها، ولا يمكنه التنفس إلا في أعماقها، حتى إذا هبت عليه نفحة من نسيم مختلف، حبس أنفاسه خشية أن يختنق، حتى لو كان هذا نسيمًا عليلًا نظيفًا، يكفي أنه مختلف كي لا أستنشقه!

كذلك فعل قوم نوح، وضعوا أصابعهم في آذانهم، ورفضوا أن يسمعوا، واستغشوا ثيابهم وأبوا أن يروا، وأصروا واستكبروا استكبارًا!

وكذلك فعل الضلال في كل زمان ومكان حينما جاءتهم رسلهم بالبينات، فردوا أيديهم في أفواههم، ورفضوا أن يفتحوا الأبواب والنوافذ ليدخل الضياء إلى القلوب والعقول، أو يخلعوا النظارات ليروا الدنيا بألوانها الطبيعية.. والحقيقية.

ولو أن أحدهم أقدم وقرر يومًا أن يفعل، فيخلع النظارة ليرى الحياة بلونها الحقيقي، فسيدرك حينئذ الفارق الهائل بين وضوح الصورة ونقاوتها بدون النظارة، التي لونت حياته دون أن يشعر، حين كان حبيسًا خلف زجاجها القاتم، وقابعًا بين أسوار سجنها المظلم، الذي لم يفترض ولو للحظة أنه صواب يحتمل الخطأ، وأن غيره خطأ يحتمل الصواب.

لكن كثيرًا من الناس للأسف يستسلمون لذلك الأسر، ويصرون على ارتداء تلك النظارات التي تلون أحكامهم، والسماعات التي تسيطر على تقديراتهم لكل شيء، نظارات الحب الوردية التي تزين كل سوءة وتجمل كل قبيح، أو نظارات الكراهية السوداء الداكنة التي تنفي كل فضل وتنسب كل شر لم يُنظر إليه بتلك النظارة القاتمة، نظارات التعصب وسماعات الهوى، نظارات الشهوة وسماعات الشبهة، وما أكثر النظارات وما أشد سماكة السماعات!

في حافلة تزدحم بمجموعة متباينة من الأشخاص من مختلف الجنسيات، والأعراق، والألوان؛ كانت رحلة عودتي إلى مخيمات مِنى؛ بعد أداء طواف الإفاضة، وسعي الحج منذ عدة أعوام.

جاء مجلسي في تلك الحافلة إلى جوار مجموعة من الحجاج الصينيين، وحاج نيجيري، وآخر عراقي. ظل الأخوة الصينيون طوال الطريق يتكلمون معي في حماسة بالغة، ويحاولون بإصرار عجيب إفهامي شيئًا ما لم أدرك ماهيته إلى اليوم!

وأنا أحاول إقناعهم -دون جدوى- أني لا أفقه حرفًا من لغتهم؛ بينما يُلح علينا «التبَّاع» اليمني كي نساعده في إفهامهم قيمة الأجرة التي حاولنا جاهدين أنا والأخ العراقي والأخ النيجيري بيانها لهم بلا فائدة.

استمر الحوار المحتدم، والصياح المتبادل، لأكثر من ساعتين، حتى وصلنا إلى أرض مِنى، ولم يفهم أي منا الآخر. يومها تذكرت تلك المقولة العبقرية التي تُذكر حين يعجز كل طرف عن فهم الآخر، فيُطلق على حوارهم «حوار الطرشان».

تلك الصورة الهزلية لمجموعة من الصُم الذين يكلم كل منهم الآخر بحماسة شديدة تبدو أماراتها على قسماتهم، وتدفع كلًّا منهم للصياح بأعلى صوت ممكن في أذن محاوره، الذي لا تغادر اللا مبالاة وجهه؛ حتى إذا جاء دوره ليتكلم صاح بحماسة لا تقل عن حماسة الأول، الذي تنتقل إليه على الفور حالة اللامبالاة إياها، وهو معذور؛ فإنه ببساطة لا يسمع!

لا يسمع إلا جهة بعينها، فهمه ليس منضبطًا إلا على موجة واحدة، موجة موافقيه، نفسه تكلمه ويكلمها وحسب.

نفس الأحداث، ونفس الممارسات، ونفس المواقف تجدها في رواية بصياغة، وفي رواية أخرى بصياغة مضادة تمامًا، لا بد في كل حادث أو موقف أو خيار أن تكون هناك رواية ورواية مضادة ترددها القواعد ويقنعون أنفسهم من خلالها أنهم دومًا مظلومون مضطهدون، ملائكة في مقابل شياطين.

فهذا الحزب يخاطب قواعده ويقنعهم أن قراراته لا مثيل لها- وأنه هو الحزب الأعظم في تاريخ البشرية، وأنه الحريص الوحيد على مقدرات البلاد والقارئ الفريد لمناطات الاضطرار والحاجة والمتاح والممكن، وأنه هو المحافظ على الشريعة في كل حال، والحاقن الأوحد للدماء.

فمن يفهم تلك التوجيهات (العكاشية) اللوذعية التي تصدع كل مساء، محذرة من الماسونية الإرهابية، ومن يتحمل صرخات تلك المذيعة العصبية، أو نرفزات وبذاءات زوجها السوقية، أو لا يمل من هدوء أخيه المحنك، إلا أتباعهم ومعجبوهم على أريكتهم الوثيرة، التي على ظهرها المريح يقبلون ويتحملون كل ذلك، ويفهمون ويدركون مغزاها ومدلولها؛ فالرسائل موجهة لهم هم، وهم وحدهم.

ومن آن إلى آخر وعبر الأثير، سيرسل المغرد سؤاله الشهير الذي يثبّت به أتباعه المخلصين، قائلًا: هل هناك دولة؟! وسيدركون جميعًا المغزى، ويهللون ويرددون صيحات الإعجاب بتلك السنين الضوئية التي يسبق الجميع بها، ولن يفرق معهم بعد ذلك حتى لو ظل حبيس التغريدات وكأن شيئًا لم يتغير وكأن ثورة لم تقم.

حتى من هم أصحاب قضية عادلة كثير منهم للأسف يخاطب نفسه وحسب؛ إذ لا يتصور مطلقًا أن قناعة مخلوق ستتغير، أو سيتم تصحيح فكرة أو وعي، أو الترسيخ لمبدأ أو حق، حين يقال في ختام تلك التوعية أو الدعوة أو النصيحة كلمات من نوعية: (هز ديلك) أو (اشرب برسيم)، أو بصب اللعنات على المنصوح والمدعو.

وحين تنصح بتغيير الخطاب لتنجح التوعية وتظهر عدالة القضية، تجد حقيقة أن الخطاب ليس توعية ولا يحزنون، وأن الأمر في كثير من الأحيان ما هو إلا حديث نفس لتثبيت القواعد، أما الآخرون ففي نظرهم لا فائدة أصلًا منهم، وكأنهم قد حكموا بمآلهم ومصيرهم.



الكل في النهاية -إلا من رحم الله- يسقي أتباعه ومؤيديه جرعة التثبيت، ويعطيهم الرواية التي تناسبهم، والاجابة التي تجعلهم ينامون مرتاحي البال، بعد أن يحفظوا تلك الإجابة التي لقنتها لهم أنفسهم -أقصد فئتهم أو نوعهم أو فصيلهم أو حزبهم- ثم يضعونها (كوبي وبيست) عند خصومهم ومخالفيهم، وطبعًا خصومهم لن يقرأوها لأنهم يرتدون نظارات من لون آخر، وهم أيضًا مضبوطون على موجة معينة لكن مختلفة، ولابد لكي تكلمهم أن يكون ذلك من خلال تلك الموجة، وتعطيه الرواية التي يصح معها أن تقول إنه يكلم نفسه، ونفسه ترد عليه.

بذلك تثبت القواعد، نعم؛ لكن كل قاعدة تظل على جزيرتها المنفصلة التي تتباعد باستمرار عن الجزر الأخرى، وتتقطع باستمرار مع هذا التباعد كل خطوط التواصل المحتملة، وكل فريق يستعمل نفس الحالة أو الموقف في نصرة فكرته، وزيادة درجة العتمة على زجاج النظارات الداكنة التي يسيطر بها على رؤية أتباعه ومريديه وموافقيه، أو مضاعفة سُمك السماعة التي تعزل سمع مؤيديه ومحبيه.

ورغم أن الصوت عالٍ، إلا أنه من النادر أن تجد أحدًا يسمع أو يعقل في كل تلك الضوضاء، اللَّهُمَّ إلا من مصدر واحد فقط في النهاية:

نفسه، تكلمه ويكلمها..



الكريسماس جذوره وتاريخيته

هيثم سمير

يحتفل أغلب العالم الآن بعيد ميلاد المسيح، أو (الكريسماس)، في يوم ٢٥ ديسمبر، بينما يحتفل به الأقباط في مصر يوم ٢٩ كيهك الموافق ٧ يناير، وتحتفل به الكنائس الأرمينية يوم٦ يناير، ففي أي يوم ولد المسيح؟ ومتى بدأ ذلك الاحتفال وما أصله؟

يجدر بنا أن نبدأ أولًا بمعرفة أصل ذلك الاحتفال ومصدره؛ ففكرة الاحتفال بأعياد الميلاد كانت محل رفض شديد في الكنيسة الأولى، كما تقول دائرة المعارف الكتابية، وأيضًا بحسب الموسوعة الكاثوليكية فإن هذا العيد لم يكن من احتفالات المسيحية القديمة؛ حيث أنها كانت عادة الوثنيين، فكانوا يحتفلون بميلاد الأباطرة وبميلاد الآلهة.

وقد استنكر هذه العادة آباء الكنيسة الأوائل، مثل أوريجانوس (١٨٢ ٢٥٤م)؛ حيث قالإنه بحسب الكتاب فإن العصاة فقط وليس القديسين هم من يحتفلون بأعياد ميلادهم.وأيضًا فإن كلًّا من: ترتليانوس (١٦٠ ٢٢٠م)، وإيرينيئوس (١٣٠ ٢٠٢م)، لم يضما هذا العيد ضمن قوائمهم بالاحتفالات المسيحية.

بحسب دائرة المعارف الكتابية فإن هيبوليتس (١٧٠ ٢٣٦م) قد روى أن هذا الاحتفال بدأ في القرن الثاني، وبحسب الموسوعة الكاثوليكية فإنه بدأ في مصر. إلا أن القدماء لم يجمعوا على يوم معين لميلاد المسيح، فقد اختلفوا في ذلك كثيرًا.

عن تلك الخلافات القديمة نجد شهادة إكليمنضس السكندري (١٥٠ ٢١٥م)؛ حيث قال: «إن بعض اللاهوتيين المصريين حددوه في ٢٠ من شهر مايو، وقد حدده آخرون في ١٩ أو ٢٠ أبريل».

وفي كتاب منسوب بالخطأ إلى كبريانوس (٢٠٠ ٢٥٨م) جعل يوم مولد المسيح في ٢٨ مارس لأنه اليوم الذي خلقت فيه الشمس.

وتنقل لنا الموسوعة الكاثوليكية عن المؤرخ الإيطالي أنه لا يوجد شهر في العام لم يدّع أحد المصادر المسيحية المعتبرة أن المسيح قد ولد فيه. ولهذا تقول دائرة المعارف الكتابية أنه لا يمكن تحديد اليوم ولا الشهر الذين ولد فيهما(يسوع) بدقة.

وبشكل عام كان المسيحيون حتى القرن الثالث يحتفلون بعيد الميلاد وبعيد الظهور الإلهي في يوم واحد، وهو السادس من يناير، ثم تقرر بعد ذلك الفصل بين العيدين، وأصبحت الكنائس بدءًا من القرن الرابع تحتفل بكل عيد في يوم، واختاروا الخامس والعشرين من ديسمبر للميلاد، والسادس من يناير للظهور، إلا أن الكنيسة الأرمينية ظلت على العادة الأولى تحتفل بالاثنين معًا في اليوم السادس من يناير.

وكانوا في الماضي يتبعون التقويم اليولياني، إلا أنه بعد أن ثبتت عدم دقته تحولت الكنائس إلى استخدام التقويم المتبع عالميًّا الآن وهو التقويم الميلادي، لكن الكنائس الشرقية ومنها القبطية والروسية ظلوا يستخدمون التقويم القديم، الذي يوافق فيه يومُ الخامس والعشرين من ديسمبر يومَ السابع من يناير.

فكيف تم إذن اختيار هذا اليوم للاحتفال بالميلاد؟ هناك عدة نظريات في سبب اختيار ذلك اليوم، أهمهم اثنتان.
النظرية الأولى:تقول إن هذا التاريخ جاء وفق حسبة تقول بأن يوم الحبل بيسوع هو يوم وفاته، وأن ذلك كان في ٢٥ مارس، وهو تقليد غير إنجيلي يرجع إلى ترتليانوس، إلا أن هذا التاريخ -كما تقول الموسوعة الكاثوليكية- مستحيل تاريخيًّا، وذلك نظرًا للصعوبات التاريخية الأكبر في تحديد يوم الصلب والوفاة، وبإضافة تسعة أشهر يكون ميلاده في ٢٥ ديسمبر.

فالأناجيل كما يقول المؤرخ القبطي الكبير عزيز سوريـال عطية في الموسوعة القبطية: «لم تحدد لا اليوم ولا الشهر الذين ولد فيهما المسيح». علاوة على أن المعلومات الموجودة بالأناجيل تؤكد صعوبة أن يكون الميلاد في شهر ديسمبر، لسببين:

الأول: قصة الإحصاء التي نجدها في [إنجيل لوقا ٢: ١-٣]: «وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة. وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سورية. فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته». ومثل هذا الإحصاء الذي كان يتطلب سفر عائلات بأكملها كان مستحيلًا إتمامه في الشتاء.

الثاني: قصة الرعاة الذين كان يحرسون الغنم في الليل في العراء [إنجيل لوقا ٢: ٨]: «وكان في تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم». ومن الصعب جدًّا أن يرعى الغنم في ليل شتاء ديسمبر في فلسطين.

النظريةالثانية: تقول بأن هذا التاريخ اختير بالمماثلة مع أعياد وثنية سابقةللمسيحية، وهي النظرية الأقوى، نظرًا للصعوبات التاريخية والحسابية التي تواجهها النظرية الأولى، وأيضًا بسبب توافقها مع النهج المسيحي في القرون الأولى.

يقول ويل ديورانت عن علاقة المسيحية بالوثنية القديمة: «إن المسيحية لم تقضِ على الوثنية، بل تبنتها، ذلك أن العقل اليوناني المحتضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها».

ويقول أيضًا المؤرخ القبطي الكبير عزيز سوريال عطية، في تاريخ المسيحية الشرقية: «إن حب المصري للتدين قد خنق أمام عقله أشياء كثيرة ظلت بصماتها واضحة على الديانات السماوية اللاحقة تاريخيًّا. ويبدو هذا واضحًا فيما تسرب من العقائد القديمة إلى الديانة المسيحية بوجه خاص».



فمن أي الأعياد الوثنية نقل الاحتفال بعيد الميلاد؟

يبدو أن الاحتفال بعيد الميلاد اخترع ليحاكي عيد الشمس التي لا تقهر ؛ حيث إن الاحتفال بهذا العيد كان منتشرًا بشدة في الإمبراطورية الرومانية، وتلك المعلومة نجدها في معجم الإيمان المسيحي لصبحي حموي اليسوعي،وأيضًا في الموسوعة الكاثوليكية، وفي مئات المراجع التاريخية والمسيحية التي لا مجال لسردها.

وأيضًا بسبب ارتباط هذا اليوم بالديانة الميثرائية، كما يخبرنا سلوان موسى في كتابه سر التجسد، وويل ديورانت في قصة الحضارة. ويقول ويل ديورانت أيضًا في مباهج الفلسفةإن: «عيد الميلاد في الأصل عيدًا مصريًّا خاصًّا بمولد الشمس، أي عند الانقلاب الشتوي حين يتحرك الفلك المقدس شمالًا، وتأخذ الأيام تطول».

إلا أنه بالرغم من أن هذا التاريخ غير مبني على أي أساس تاريخي حقيقي، بل هو فقط محاولة من الكنيسة لأن تحصد أعدادًا جديدة من الوثنيين بتنصير أعيادهم الوثنية، كما تقول أ.ل. بتشر في تاريخ الأمة القبطية،وأيضًا ماهر محروس مرجان في كتاب تأثير المسيحية في مصر الفرعونية،إلا أن بعض الآباء يعتقدون أن المسيح ولد بالفعل في هذا اليوم، كما ورد في موسوعة للأديان.

ولذلك حاولوا أن يبرروا لاهوتيًّا ذلك التماثل بين تاريخ ميلاد يسوع وتاريخ ميلاد إله الشمس الذي لا يقهر؛ فنجد مثلًا يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ ٤٠٧م) يقول: «لكن ربنا نحن أيضًا ولد في شهر ديسمبر... في الخامس والعشرين من ديسمبر... لكنهم يسمونه عيد(الذي لا يهزم) ومَن هذا الذي لا يهزم سوى ربنا...؟ وإن كانوا يقولون إنه يوم ميلاد الشمس، فإنه هو شمس البر».

وهو هنا يشير إلى نص [سفر ملاخي ٤: ٢]: «ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها فتخرجون وتنشأون كعجول الصيرة». وهو نص من العهد القديم يعتقد المسيحيون أنه يشير إلى يسوع.

تلخيصًا لما سبق أقول إن يوم الخامس والعشرين من ديسمبر ليس يوم ميلاد المسيح، بل هو يوم العيد الوثني لميلاد الشمس، قام المسيحيون في الماضي بتنصيره من أجل كسب ود الوثنيين.



الوحدانية ضرورة عقلية لا مرحلة زمنية

ماهر أمين

«النتيجة العامة التي انتهت إليها اللجنة من البحث في أربعة آلاف من الآلهة في الهند، هي أن كثرة الهنود الغالبة تعتقد عقيدة راسخة في كائن واحد أعلى». [قصة الحضارة ول ديورانت]

لا زلنا نواجه باحثين تسيرهم حمولة فكرية ثقيلة تأزهم إلى استنتاجاتهم أزًّا، يحاولون بعد تبنيهم نظرية التطور الدارويني أن يجروا تطورهم على الأديان، لتشعر وأنت تقرأ لهم وتتابع برامجهم وتتطبع في عقلك اللاواعي بما يريدونه منك في إعلامهم، بشعور من فاته ركب الحضارة، وأن عليك أن تتطور وتدع تخلفك في حقبة التدين لتلحق بهم حيث تجري بهم أهواؤهم، وتركب سفينتهم إلى حقبتهم الجديدة، فتغرق معهم في بحر الجهل والظلمات وجحد الضروريات، وتنتحر عقليًّا كمقدمة لانتحار حقيقي!

فمما تبنوه حقيقةً بدوغمائية لا تقل عن تلك التي يرمون بها مخالفهم- أن الدين تطور وترقى بشكل مرحلي، ومن نظرياتهم في هذا التطور قولهم بأنه تطور من مرحلة بدائية سمتها تعدد الآلهة والوثنية أو عبادة الأرواح أو مظاهر الطبيعة المتكثرة، وأن هذا التوحيد كان غائبًا عن البشرية حتى وقت قريب، ثم ظهر التوحيد لينقذ الموقف ويرتقي المسرح بديلًا عن تلك المرحلة الأولى ومناهضًا لها، كابن عاق لأبيه، نتج عنه ثم تنكب له، وكأن هذا التوحيد مرحلة يجب أن ترتقي منها البشرية إلى تصفير عداد الآلهة.

وفي هذا المقال لا أتطرق للبحث التاريخي في هذه القضية، فهو من تخصص علماء التاريخ والانثروبولوجي، وشهادة أصحابهم كلانج، وماكس مولر، وستيفن لانقدون، وشميدت، وآرثر كوستانس، وإدوين أوليفر، وغيرهم، كافية في مخالفة هذه النظرية، ونصرة القول بأن التوحيد ومقالة الكائن الأعلى هي الأصل.

وأن الوثنية هي الانحراف نتيجة نصب الجاهليين صفات الله أو الملائكة أو بعض مظاهر الطبيعة آلهةً عبدوها من دون الله، ولكنني سأتطرق للجانب العقلي في إثبات الوحدانية، ولن أتطرق معه إلى تلك الأطروحات المتهافتة التي تشكك في العقل وأولياته، وتخضعها لذات التطور البيلوجي الذي زعموه، وسأنطلق من الضرورة القائلة إن أوليات العقل هي هي في كل زمان، وأن دعوى التطور أيًّا كان مصداقها في الخارج، فإنها لا تعني تغير الحق والبدهيات اللازمة لتعقل الوجود.

تعددت أدلة إثبات وحدانية الله سبحانه بين طوائف المثبتين لوجوده، وتكلم فيها المتدينون فرعًا عن إثباتهم أن لهذا العالم ربًّا أزليًّا خالقًا، مطلق القدرة والعلم والإرادة، وتقدمةً للكلام في إثبات النبوة والنص.

وذكر قوم أنهما -النبوة والنص- يثبتان من غير حاجة لإثبات الوحدانية، ثم يستدل بالنص على الوحدانية.

وأيضًا تثبت الوحدانية بما يقفز إلى ذهن الإنسان بالفطرة التي تدفع كل ناظر في هذا العالم المتسق بنظام لا تتخلف سننه إلى أن يعتقد وحدانية خالقه ومسيره، وإلى أن فرض إلهين لهما حق الربوبية والعبادة يلزم منه التنازع وفساد العالم؛ فالرب المستقل بهذا الحق كامل لا يرضى منازعته حقه، فلو وجد مستحقان للربوبية ﴿لَّا بْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وبتنازعهما في هذه الأحقية، ونتيجة اختلاف الإرادات وتمايزها مع تأثيرهما في محل واحد =ينتج الفساد، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّـهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهو خلاف المشاهد، فضلًا عن تواتر شهادة الأنبياء الذين ثبتت نبوتهم بآيات بينات أن الإله واحد، وأنه مرسلهم، دون أن ينازعه في دعوى الألوهية وإبطال آيات أنبيائه إله آخر، كلها أدلة تنتج إيمانًا جازمًا بالوحدانية.

وإضافةً لما سبق فقد أثبت وحدانية الله بأدلة عقلية أخرى عدد من الفلاسفة؛ كسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، واكزينوفان، فضلًا عن المليين والمسلمين منهم تحديدًا، فابن سينا ينفي التعدد لأنه يلزم منه أن يكون نوع وجوب الوجود مقولًا بالاشتراك بين أكثر من واحد، فيلزم أن الواحد منهم ليس وجوب وجوده من ذاته وإنما لعلة أوجبت اشتراكه وغيره في هذا المسمى.

والكندي ومن تبعه كالفارابي وابن سينا وبعض المتكلمين كالرازي والأصفهاني، استدلوا بلزوم وقوع الاشتراك والامتياز، وأن يتركب كل منهما مما به اشتركوا في الربوبية ومما به يقع التغاير بينهما، مما يعني عدم كون أحدهما واحدًا بالذات ونقض ربوبيتهم جميعًا، وبمثل هذا استدل أرسطو قبلهم من لزوم التركب من جنس به يقع الاشتراك وفصل به تقع المغايرة، وغيرها من المقاربات التي حاولها الفلاسفة والمتكلمون، ولم يخلُ شيء منها من مقال واعتراض واستدراك، كما ألزمتهم لوازم قبيحة في باقي مسائل الاعتقاد.

ولعل من أبرز الأدلة في إثبات الوحدانية عقلًا =دليل التمانع ، وهو دليل أداته سبر وتقسيم منحصر، تبطل أقسامه بقطعيات العقل، فنتيجته قطعية عقلية لا تشكيك فيها، والدليل محوره في سؤال: **لو فرضنا إلهين مطلقي القدرة، واختلفا كأن يريد أحدهما مثلًا إحداث العالم ولا يريده الآخر، من سيغلب؟**
عندنا احتمالات ثلاثة لا رابع لها:

- إن قلنا «لا أحد منهما»، كان هذا انتقاصًا لقدرتهما، فكلاهما عجز عن إنفاذ إرادته، وهو أيضًا جمع بين نقيضين «أن يوجد العالم وأن لا يوجد».
- وإن قلنا «كلاهما»، لزم الجمع بين النقيضين كالأول.
- فإن قلنا «غلب الأول وأحدث العالم كما نرى في الواقع» =كان هو الإله المطلق القدرة والإرادة، وكان الثاني ناقصًا مفتقرًا له، لا يملك إنفاذ مراده إلا إن سمح له الأول وأعانه.

ولربما يرى مسفسط أن الجمع بين النقيضين -كوجود الشيء وعدمه- أمر جائز، ولكن المقال يخاطب العقلاء ممن يمنع أن تلد المرأة نفسها أو يوجد الشخص نفسه! وقد يجادل من هو أقل سفسطة أنهما -الإلهين المفروضين- قد يلزمان التوافق فلا يختلفان لاتفاقهما في الحكمة مثلًا، فنقول: الكلام في فرض أنهما اختلفا لا في وقوعه، إلا إن قيل أنهما لا يقدران على الخلاف وإن أراداه، فيكون كلاهما عاجزًا ويبطلان سوية.

فإن قيل: يلزمان الوفاق لوجود ما يمنعهما من الاختلاف، كما لا يريد زيد خلاف ما يريد عمرو لكونهما مؤتمرين بأمر سيف -متدخل خارجي-، فهذا وإن جاز في مخلوقين، فإنه لا يجوز في الإلهين المفروضين، فتأثر أحدهما أو كلاهما بسبب خارجي ينقض هذا، ويكون مَن منعهما هو الإله المطلق، ومن أين لهما التدخل الخارجي ونحن نفرضهما أزليين لا أحد معهما أو فوقهما في التأثير؟



ولعل أحدهم يقول: **ما الذي يمنع وجود احتمال رابع لم نُحِط به؟** فنجيب: هذه قسمة عقلية قائمة على النفي والإثبات، وتدور بين وجود وعدم -سبر وتقسيم منحصر- فهي قسمة منحصرة،كما لو قلنا: زيد وعمرو، فإما كلاهما موجود، أو أحدهما، أو لا أحد منهما، فكذلك الأمر هنا، إما نفاذ مراد أحدهما، أو كليهما، أو لا أحد منهما، وإنك عقلًا لا تتصور خروج شيء عن هذه الاحتمالات.

فإن قيل: القسمة منحصرة، ولكن إبطال الأقسام ظني ولعل ما أبطلناه صحيح، أجبنا: بل أبطلناها بقطعيات العقل الضرورية -امتناع الجمع بين نقيضين-، فدل ذلك على امتناع وجود إلهين متكافئين، وأنه لابد من وجود إله يعلو على الآخر قدرةً وإرادة، والثاني دونه فيهما، ويلزم عن هذا أن هذا الثاني مخلوق للإله الأول وليس بإله في نفسه، كيف؟ لأنه إن جاز أن يمنع الإله التام القدرة الثاني الذي هو دونه في أمر، جاز أن يمنعه في كل أمر، فصارت إرادة الثاني مشروطة بأن يأذن له الأول، ومن كانت قدرته مفتقرة إلى غيره افتقار المشروط إلى شرطه المؤثر فيه =لا يكون مطلق القدرة، ولابد وأن يكون وجوده حادثًا بعد عدم، كما أن الإحراق يكون بعد وجود الأوكسجين، وكما أن الخطوة الثانية تكون بعد الأولى، فكل ما هو مشروط بشيء =يكون مفتقرًا إلى شرطه المؤثر فيه وحادثًا بعده، فيمتنع وجود إله أزلي قدرته مشروطة بإله آخر ومفتقرة إليه؛ فكل ما عدا الإله الخالق الكامل مخلوق مفتقر إليه، ولا إله سواه سبحانه.

وفي الدليل الذي حررناه رد على من قال بأن العبد يخلق فعله، وعلى من يدعي اكتفاء مكونات الطبيعة بنفسها، وعلى من ينكر افتقار العالم إلى رب يدبره، فيدعي أنه صار بعد خلقه مسيرًا بقوانين مستقلة عن خالقها، فنفرض أن الله أراد مخالفة قانون منها، ونجري الدليل ليظهر افتقارها إليه في بقائها كما افتقرت إليه في وجودها ابتداء، فهو دليل يهدم أي دعوى تدعي وجود أكثر من مكتفٍ بذاته مستقل عن غيره، وأن هذه الصفة لا تكون إلا لواحد أحد قادر مريد لا إله إلا هو.

والدليل على بداهته قصدنا التفصيل فيه بلغة مبسطة لتقريبه إلى القارىء وللإحاطة بأبرز ما دار حوله من جدليات، هو دليل تضمنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] فلابد أن يعلو أحدهما بقدرته على الآخر ويمتنع التكافؤ، ونجد القرآن مع هذا اللازم يتطرق إلى لازم آخر ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، فلو فرضنا أنهما متكافئا القدرة ومستقلان، لاستقل كل إله بمخلوقاته. لم؟ لأننا بين أمرين:

الأول: إن لم يستقلا وعاون كل منهما الآخر =كان كل واحد منهما غير تام القدرة ومحتاج إلى من يعينه.

الثاني: وإن استقلا بمخلوقاتهما ولكن جوزنا قدرة أحدهما على التأثير في مخلوقات الثاني =كان كل واحد منهما غير مستقل بمخلوقاته وغيره قادر عليها معه.

فإن قيل: يؤثر أحدهما في مخلوقات الثاني بإذنه ورضاه، قلنا: نرجع إلى دليل التمانع ونفرض أنه لم يأذن واختلفا، فيظهر البطلان.

وإن جاء بعدها أحدهم وقال: حسنًا، ذهب كل إله بما خلق، فكان لكل إله عالمه الخاص، أين الإشكال؟ فنقول: بل هذا منقوض بدليل التمانع أيضًا، بأن نقول: هل يجوز أن يريد إله تغيير شيء في عالم الإله الثاني أم لا؟ إن قيل «نعم» دخلنا في الاحتمالات الثلاثة التي يلزم منها نفوذ إرادة أحدهما وكون الثاني مفتقرًا مربوبًا لا ربًّا، وإن قيل «لا» تكون إرادتهما محدودة، فكلاهما عاجز عن إرادة تغيير شيء من مخلوقات الثاني، وليس واحدًا منهما تام القدرة والإرادة، كما أن هذا اللازم خلاف ما هو واقع في الخارج، من ارتباط العالم ومن كون كل شيء فيه مفتقرًا إلى غيره، وأنك كيفما تصورت العالم لم تتصوره إلا مجموعة أمور تؤثر وتتأثر في نفس الوقت، وأن لا شيء فيه يستقل عن شيء آخر استقلالًا تامًا ينبي بكون خالق الأول مستقلًّا عن خالق الثاني، بل مجموع ما في العالم يرجع إلى قوانين وسنن كبرى هي في نفسها تؤثر وتتأثر بمنتجات بعضها من غير استقلال، ولابد لها من مدبر مفعّل يخرجها من حيز القانون النظري إلى التأثير الكوني.



وهذه البراهين تضمنها القرآن بأوجز عبارة وأدلها على المطلوب، بعيدًا عن تشقيق الاحتمالات البعيدة كما فعلنا هنا دفعًا لأي استدراك، إضافة لكونه لم يكتفِ بالتدليل على وحدانية الخالق سبحانه، بل وبنى على هذه الوحدانية دعوة الأنبياء والمرسلين، فكما أن كل مخلوق يتحرك بالإرادة، ولا بد له من مراد وسعي في تحصيل هذا المراد بأسبابه، وكما ثبت أن الرب الخالق مسبب هذه الأسباب ومنتهاها الأول الآخر =واحد سبحانه، فهو المراد لذاته الواحد الذي ليس فوقه مراد عز وجل، وهو المعين بذاته استقلالًا على هذا المراد لذاته بل وعلى كل مراد، وكل مخلوقاته مرادة لغيرها وأسباب غير مستقلة في تحصيل المطلوب، فهو وحده المستحق للتذلل والخضوع المتجاوزين لحدود الأسباب الطبيعية -التي تراد لغيرها ولا تعين بذاتها- فلا يصرف هذا النوع من الخضوع والتذلل إلا لله -المراد والمعين بذاته- المستحق الوحيد للعبادة سبحانه دون ما عداه مما يفتقر إليه أصلًا وبقاءً، ويعبده حالًا أو مقالًا، ولا يملك من دونه ضرًّا ولا نفعًا.

فأيًّا كانت أسباب عبادة المخلوق فهي في الله أكمل وأعلى، والسيد من البشر لا يرضى شراكة عبده في شيء من ملكه، فكيف يرضى الغني المستقل بملكه وخلقه أن يدعى له شريك في العبادة، فيراد كما يراد، ويحب كما يحب، ويدعا فوق الأسباب كما يدعا الله، فكما تنزه سبحانه أن تشاركه أرباب في الوجود =تنزه سبحانه أن تشاركه آلهة في العبادة.



أخي ونفسي،

إني تأملت الناس فوجدت أنه تمر على الإنسان لحظات يحس فيها بفقده لشخصيته وكيانه دون أن يدري لذلك سببًا محددًا، وتتوارد على ذهنه الأسئلة تلو الأسئلة، وهو في ذهول تام لا يستطيع أن يتصور أجوبة لها؛ بل هو في عجز حقيقي عن إدراك ما حوله، غير قادر على استيعاب الخلل الذي أصابه.

إن هذه اللحظات هي أخطر ما في حياة الإنسان، إنها انقطاع الارتباط بين الوعي بالواقع والمحيط، وبين العقل والكيان والشخصية، إنها لحظات قد تبدو بمقياس الزمن بسيطة جدًّا، لكنها قد تمثل قطيعة بين مرحلتين أو ربما بين مراحل متعددة من تبلور شخصية الإنسان، فبمقدار درجة فقدان الوعي تكون الخطورة، والناس في ذلك ليسوا سواء، فمنهم من يعود إلى كيانه الذي كان عليه على الرغم من أنه من الصعب أن نقرر أنه لم يفقد في لحظات ذهوله هاته جزءًا من شخصيته وكيانه ولو في حدود الحد الأدنى، وهذا النوع معرض لأن تتوالى عليه النكبات تترى حتى يفقد تدريجيًّا شخصيته الإنسانية وكيانه الروحي، ما دام لم يخرج في كل لحظة بما يمكنه من تحصين نفسه.

ومنهم من لا يعود أبدًا إلى نقطة فك الارتباط بين واقعه وشخصيته فيفقدها دفعة واحدة، لأنه لم يكن مؤهلًا أصلًا لامتصاص آثار لحظات الصدمة هاته، فلا هو يستطيع أن يتقدم خطوات أو لنقل خطوة واحدة على الأقل، ولا هو يستطيع أن يثبت في مكانه فينكص على عقبيه إلى الوراء.

ومنهم من لا يعود أبدًا إلى نقطة فك الارتباط بين واقعه وشخصيته فيفقدها دفعة واحدة، لأنه لم يكن مؤهلًا أصلًا لامتصاص آثار لحظات الصدمة هاته، فلا هو يستطيع أن يتقدم خطوات أو لنقل خطوة واحدة على الأقل، ولا هو يستطيع أن يثبت في مكانه فينكص على عقبيه إلى الوراء.

وهناك صنف ثالث منهم، إذا انقطع عن الحياة في تلك اللحظات ازداد إدراكه لحقيقتها، وأيقن أنه لا معنى للحياة بعيدًا عن الحياة نفسها كما قال إدوارد ألبرت، فيعود إلى واقعه أكثر إصرارًا وأكثر حماسة وأكثر اتزانًا وتحمسًا لمواجهة الحياة بكل حلوها ومرها، لأن لحظات رجوعه إلى كيانه وشخصيته هي اللحظة ذاتها التي يدرك فيها أنه ملزم بقبول نفسه كما هي، وهذه اللحظة نفسها هي التي يبدأ فيها الإنسان مرحلة جديدة من مراحل تبلور شخصيته.

وإذا ما أردت أن أحدث عن هذا النوع الثالث، فإن الحديث عنه ذو شجون، لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، فأقول مستعينًا بالله عز وجل:

هذا النوع الثالث هو الصنف الأسمى من الإنسان على الحقيقة، لأنه هو الذي يدرك أن الأمن والعافية هما أساس كل النعم بتعبير الإمام الجويني رحمه الله، ومن دون هاتين النعمتين لا يهنأ الإنسان بلذة ولا يستمتع بمتعة، إذ لا لذة لخائف ولا متعة لسقيم.

هذا النوع الثالث، هو الذي ترقى به همته إلى علياء المجد التي أرادها له خالقه، وهي علياء دونها أهوال، لأن الهموم على قدر الهمم، والعزائم على قدر العزم، وبالأهوال والتجارب الـمُرة يستكمل الإنسان نظرته الواقعية إلى نفسه وحقيقتها، وكما قال ول ديورانت: «لا شيء يفضل معرفة الإنسان بذاته».

هذا النوع الثالث، يشترك مع النوعين الأولين في الأوصاف التي وصف بها الإنسان خالقُه سبحانه، فهو بين العجلة والهلع والجزع، والكفور واليأس والقنوط، غير أن هذا النوع يمتلك خاصية الإحساس بهذه الصفات السلبية التي هي من صميم مكونات الشخصية الإنسانية، فيجعل منها محفزًا نحو الإيجابية التي تمكنه من تحقيق الغاية التي من أجلها خلق، هاته الغاية محفوفة بالشهوات والمكاره، إلا أنه قد يبلغها أو قد يضل الطريق إليها في اللحظة التي يفقد فيها خصوصية الوعي بسلبياته ويُمَكِّنها من السيطرة عليه.

هذا النوع الثالث، يخوض غمار الحياة، يُطعن في الظهر أحيانًا، ويُرمى بالحجارة أحيانًا أخرى، تَثْبُتُ قدماه مرة في الأرض الصلبة، وتَسُوخُ مرات إذا ما وضعها على أرض رخوة، قد يفقد توازنه لكنه ينطلق على كل حال إلى تلك الغاية غير عابئ بالعوائق الواقعة أو المتوقعة ما دام يتمتع بالثبات الانفعالي الداخلي الذي يجعله مستبقًا الخيرات، حافظًا للاتزان التام بين بعده المادي وكيانه الروحي، سائرًا على الاستقامة المأمور بها.

هذا النوع الثالث، مريد للحياة، موافق للإرادة الكونية، مستمسك بالإرادة الشرعية، لأنه يقينًا يعلم أن إرادته تالية ناشئة عن إرادة أصلية هي إرادة المولى بأن يكون الإنسان خليفة، ومتى استجاب رب القدر فإنه إنما استجاب له لأنه استعاد الوعي بالواجب الذي عليه.

فليس القدر خادمًا تابعًا لمشيئته، إنما هما قدران كلاهما هو مسؤول عنه، إما قدر يحياه كما أراده الله له، وإما قدر يصنعه بأهوائه وانحرافاته وسكونه وخضوعه ورعايته للباطل سكوتًا وموافقة، فمتى صنع قدره أوكله الله إليه فذلت رقبته للجبابرة الطغاة، لأن هذا الذل نتيجة لقدره الذي صنعه هو لا لقدر الله الذي أراده أن يكون آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر مؤمنًا بالله، ثلاثة شروط تتحقق بها الاستجابة متى تخلف واحد منها فليذق إنه هو العزيز الكريم.

هذا النوع الثالث، هو الرجل الشريف ليس صاحب سعادة ولا صاحب شهادة ولا صاحب عمارة وليس لغزًا من الألغاز، إنما هو إنسان بسيط، يعمل في وعي وبحافز حُر، وبإحساس فادح بالمسئولية، إنه إنسان مبناه على أمرين لا ثالث لهما: ما أسَّس عليه نفسه، وما أرسل إليه نفسه، فهو متقن لبنائه، محسن لانتمائه، لأنه يدرك قطعًا أن الشيء من رسالته.



هذا النوع الثالث، أراه كاللؤلؤة التي تبقى لؤلؤة وهي في قاع البحر، وهي في يد الصائغ وهي في جيد من تتطوقها، لا يضرها ألا يعرف مالكها قيمتها فخسارته من نفسه لا منها، لذلك هو يوقن بقاعدة: لا تلتفت إلى الوراء، وهو قول لا يستقيم في كل حال، ولكن في بعض الأحوال هو الدواء الناجع، والسم الزعاف لمن يلقيه وراءه، ذلك أنه جميل جدًّا أن تكون له ردة إلى الوراء، فشرط صحة النهايات تصحيح البدايات، قد يستغرق ذلك وقتًا، لكن إن مات وهو يصحح بدايته فتلك نهاية صحيحة.

هذا النوع الثالث، مفهوم الصلاح لديه يقوم على العناصر الثلاثة التي يقوم عليها الدين كله، ويحفظها فقه التدين كله، وهذه العناصر هي: الإسلام والإيمان والإحسان، وهي صمامات الأمان بالنسبة للأمة الإسلامية من التطرف والانحراف والغلو، وهي منافذ الهواء إلى قلب الأمة حتى تبقى حية قائمة بالواجب الذي عليها، محافظة على موجبات الخيرية الموعودة بها.

وهي الأصول الثلاثة التي تقوم عليها الوسطية الإسلامية، وهي الميزان والموازنة بين الثبات والتغير، وبين الحركة والسكون، والتي تأخذ بالعزائم دون التجافي عن الرخص في مواطنها، وتطبق الثوابت دون إهمال للمتغيرات، وتتعامل مع الأشخاص والأنواع وتقيم وزنًا للزمان ولا تحكمه في كل الأحيان، وتفرق بين المتماثلات وبين المتباينات.

هذا النوع الثالث، متفائل من غير تحليلات السياسيين، أو أقاويل المفكرين، فإنه مكتف بـ«بعز عزيز أو بذل ذليل» ليبقى تفاؤله في عنفوانه لأنه يوقن أن الحيزوم قادم لا محالة.

هذا النوع الثالث، يحاكم الأشياء بحكم الأصل، لكنه حين يرى أن الأصل احتفت به عوارض وملابسات تمنع من إجراء الحكم عليه، لا يلتزم هو حكم الأصل، لأنه قد ثبت عنده الناقل عن حكم الأصل.

هذا النوع الثالث، يتعامل مع واقعه ومع ماضيه وفق قواعد علمية مضبوطة، وهذه القواعد في نظره هي كما يقول ابن عاشور رحمه الله: «القواعد العلمية التي أسسها لنا السلف فإن الطالب يقرأها ويكتسبها لتخدم فكره، لا لتستعبد أفكاره، ومتى استأسرت القواعد الأفكار بان خطأ النظر».

هذا النوع الثالث، يدرك معنى قول ابن المقفع رحمه الله: حق على العاقل أن يتخذ مرآتين؛ فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه، فيتصاغر بها، ويصلح ما استطاع منها، وينظر في الأخرى في محاسن الناس، فيحليهم بها، ويأخذ ما استطاع منها.

هذا النوع الثالث، هو الذي يعلم أن البشر مجبولون على أخلاق متباينة وشيم مختلفة؛ فكل واحد يجب اتباع مساعدته وترك مباعدته، فمتى رام من أخيه ضد مَا وطن نفسه عَلَيْهِ قلاه، وإذا تبين له منه خلاف مَا أضمر عَلَيْهِ قلبه مله، ومن الملال يكون الاستثقال، ومن الاستثقال يكون البغض، ومن البغض تهيج العداوة، فالاشتغال بمن هذا نعته للعاقل حمق.

- هذا النوع الثالث، يدرك معنى وحقيقة أن يكون شريف النفس، فهو في قرارته يعلم أن شرف النفس مع صغر الهمة، أولى من علو الهمة مع دناءة النفس؛ لأن من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديًا إلى طلب ما لا يستحقه، ومتخطيًا إلى التماس ما لا يستوجبه. ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له. وفضل ما بين الأمرين ظاهر وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب.

هذا النوع الثالث، يدرك أن التقويم يختلف عن التجريح، ويختلف عن الشماتة، فهو يقوّم المسيرة أي يصحِّحُها، يلغي العنف من الحياة ويضع مكانه الدعوة الصحيحة والكلمة الواضحة.

هذا النوع الثالث، يدرك أن في الزمان ساعة حرجة يبلغ الباطل فيها ذروة قوته، ويبلغ الحق فيها أقصى محنته، والثبات في هذه الساعة الشديدة هو نقطة التحول.

هذا النوع الثالث، يلتزم معنى ما قال الأحنف بن قيس رحمه الله: «ثلاثةٌ لا ينتصفون من ثلاثة: حليمٌ من جاهلٍ، وبر من فاجرٍ، وشريف من دنيء».

إذا أدركت هذا أيها الناظر الكريم، فاعلم أن ما سبق يستتبع أمورًا أخرى، أجملها لك في معان مختصرة يسيرة العبارة، فخذها طيبة بها النفس، ولتقع منك الموقع الذي أردت لها منك، فإن رضيت فاعلم:



أنه أحيانًا قد يكون من الإحسان إلى الغير أن تتركه يخدعك، فلربما تحصل منفعة لم يجد لها المسكين طريقًا إلا خداعك.

أن النفس حال المراجعة كالطفل الصغير ينجز واجباته، ينساق حينا ويتلهى بك غالبًا.

أنك إذا شككت في أحد أمرين فألزم نفسك الإنصاف بالشك في مقابله، فقد قال لنا علماؤنا رحمهم الله:

والشك في أحدِ ما تقابلا *** يوجب شكا في نظير عادَلا

أنك لا يمكن أن لا تغضب، لكن لا ينتهي غضبك إلى الإثم، واعف إذا لم يكن ترك الانتقام عجزًا، كما يقول ابن المعتز رحمه الله، أو كما قال في موضع آخر: «إذا أعيتك الكلمة فلا تجاوزها إلى غيرها، فإن الكلام إذا كثرت معانيه كثر تقلب اللسان والقلب فيه، فوقفا محسورين أو بلغا مجهودين.

أنه ينبغي أن يكون همك أن تسلم نفسك لنفسك من نفسك، فكل نائبة بعد السلامة تهون.

أن الفهم ليس ثوبًا أنت لابسه، أو دعوى تدعيها، الفهم سلوك وممارسة.

أن إحسان الجدل إحسان إلى المجادَل بإرشاده إلى الحق وإبطال شبهه، وشرفه بشرف المجادَل فيه، والمجادلة لإظهار الإيمان أفضل المجادلات.

أنه ينبغي كي لا تؤلمك الحقيقة يومًا: ألا تضع لنفسك منزلة عالية في قلوب الناس، ولا تتوقع منهم تضحية لأجلك، اخفض سقف توقعاتك بالجميع كي لا تنصدم.

أنك إذا تيقنت أن كلامك في أمر نتيجته كنتيجة كلام الآخرين، فلا تلفظه وابحث عن كلام يترك الآخرون كلامهم ليعملوا بنتيجته.

أننا نحتاج تجديد أدوات صناعة الحياة، لكننا قبل هذا نحتاج قلوبًا غير القلوب، وعقولًا غير العقول، ومسلمين غير المسلمين، نحتاج غارات تحيي ولا تقتل، تفيد ولا تبيد، تقسو ولا تقصي، تحنو ولا تنحي، نحتاج نصرة عاقلة، نصرة تعيد حق المظلوم وتجعل الظالم يعض الأنامل من الغيظ.

أن سؤال كيف تعرف أولى من سؤال ماذا تعرف، فكيف حتمًا تغريك وماذا قد تطغيك.

لم نوفق بعد في العثور على ميدان معركتنا الحقيقة، كل معاركنا التي خضناها في عصر الانحطاط الطويل إما معارك هامشية أو معارك نخوضها بالنيابة، فمعركتنا ليست معركة أفراد أو حتى جماعات، معركتنا معركة أمة والعثور على هذه الأمة هو أم المعارك.

أن الاتفاق الدائم المجرد عن الاختلاف المؤقت لا قيمة له، فهو يعني أن أحد الطرفين إمعة أو لا رأي له.

وأختم شغبي عليك بعبارة أراك أحق بها وأهلها، أكبر خطأ في حياتك أن تحدد لنفسك هدفًا بعيدًا لا يمتلئ الطريق إليه بأهداف أصغر منه. لن تشعر بأهميته إلا بمعاناتك في تحقيق الأهداف الثانوية وتذكر كل هدف مستأنف في نفسه.



«إن قادة مصر الحاليين يتلهفون علي القبول الدولي والشرعية الدولية، ويعتمدون على الدعم الخارجي والمساعدة، لاسيما من المؤسسات المالية الدولية»

[ميشيل حنا، فورين بوليسي, فبراير ٢٠١٣م]

«إن حكومة الإخوان تريد لنا أن نعترف بها، وتريد شراكتنا معها، ويجب أن نستمر في التعامل مع قادة مصر المنتخبين، حتى لو كان لدينا خلافات عميقة معهم، فنحن نفعل ذلك في جميع أنحاء العالم من أجل تحقيق مصالحنا».

[تامارا كوفمان، أمام لجنة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بالكونجرس الأمريكي، ٢٦ فبراير ٢٠١٣م]

قابلَني عضو في الهيئة العليا لـ «حزب النور» مبتسمًا، وقال لي: «الناس زعلانين منك»!

قلت له: أي ناس؟

قال لي: الناس في السفارة الأمريكية!

قلت له: وهل ذهبت للقاء السفيرة الأمريكية ؟

قال لي: نعم، وكان لقاؤنا رائعًا!

وكان هذا الحوار على خلفية رفضي دعوة للقاء السفيرة الأمريكية في القاهرة «آنا باترسون»!

مرّت الأيام وكنت أحضر لقاء مع نخبة من رجال السياسة والأحزاب، وجاء ذكر السفارة الأمريكية، وكيفية التعاطي مع الإدارة الأمريكية، خاصةً فيما يتعلق بالشأن الداخلي، فوجدت عضوًا من حزب الحرية والعدالة يقول:

«يجب أن نتعامل مع أمريكا بكل احترام؛ لأنها أقوى دولة في العالم»!

كل ما سبق مؤسف بالطبع، لكن الأكثر أسفًا هو أن يخرج مايكل منير -أحد أقباط المهجر وعميل سابق للمباحث الفدرالية الأمريكية- فيقول: كل من كنا نسمعهم من الإسلاميين يقول: «الموت لأمريكا! كانوا معنا في احتفال السفارة الأمريكية بالقاهرة بعيد الاستقلال الأمريكي»!! وبالفعل حدث هذا!

الإشكالية تكمن في أن خطاب أكبر كتلتين إسلاميتين في المشهد الإسلامي المصري لا يوجد فيه أي تصور للتعامل مع أكبر خطر يحدق بالإسلام والمشروع الإسلامي ومصر الإسلامية؛ أتكلم هنا عن المشروع الأمريكي الإمبريالي الصهيوصليبي!

هنا إذن إشكالية كامنةٌ، تتجلى في الخطاب الإعلامي، وفي المشروع السياسي! ولك أن تمسح التاريخ لكي تتأكد لديك هذه الإشكالية:

فمثلًا تعددت مواطن النزال مع المشروع الأمريكي في أفغانستان والعراق وغيرها، ولم نرَ لجماعة الإخوان المسلمين معركة جهاد واحدة تخوضها ضد هذا العدو الواضح والصريح، بل أحيانا تجد عكس ذلك تمامًا في تبني الجماعة للمشروع الأمريكي! كما حدث في العراق على يد طارق الهاشمي وزمرته في الحزب الإسلامي!

وعلى الجانب الآخر تجد الدعوة السلفية في الإسكندرية غير مكترثة في تنظيرها السياسي ولا في خطابها الدعوي ولا حتى في تدريسها للقواعد بأي تأسيس لموقف من الهيمنة الأمريكية والغربية بشكل عام على مصر والعالم العربي والإسلامي!



وبناء على ما سبق تستطيع فهم كلام الرئيس الأمريكي باراك أوباما من البيت الأبيض في أوائل أيام الثورة: «أن الباب قد صار مفتوحًا أمام جماعة الإخوان لأن يكون لها دور في الحكومة القادمة، شريطة نبذ العنف والالتزام بالعملية الديمقراطية»!

تصور معي جيلًا كاملًا من الإسلاميين تربى على جهاد الإسلاميين في أفغانستان والشيشان والبوسنة وفلسطين والعراق والصومال، ثم يرى تلك الممارسات وذلك التماهي وعدم الاكتراث.. ما المتوقع في نظرة ذلك الجيل لهؤلاء القادة والمشايخ!

وكيف تواجه تلك القيادات تساؤلات من نوعية: «هل نماذج طارق الهاشمي وحامد كرزاي وشريف شيخ أحمد تُنسخ الآن في مصر»؟!

وكيف تقدر تلك القيادات على النظر في عيون الشعب المصري وهى خارجة للتو من لقاء آن باترسون!

إن عقل الغرب الاستراتيجي مسكون بالصراع والحرب؛ فهو يرى -كما يقول ويل ديورنت- أن الحرب ثابت من ثوابت التاريخ، ولا يرى الآخر المخالف إلا «مادة للاستعمال»، وأن ضبط الداخل الغربي مرهون بالتعدي الخارجي!

نظرة فى تاريخ الغرب, سترى الداروينية في أبهى صورها, داروينية الذي لا يؤمن إلا بالبقاء للأقوى والأصلح، وذلك يجعلنا ندرك أن الحل مع من يراك عدوًّا هو أن تراه أنت عدوًّا، وإلا ستكون العاقبة وخيمة! ونماذج الهنود الحمر والأفارقة المهجَّرين والعراق ليست عنا ببعيد!



إن الثورة التي كانت تنادي في أيامها الثمانية عشر وترفع تقريرها للعالم عبر لوحات محمولة مكتوب فيها: «لن تحكمنا أمريكا بعد اليوم». هذه الجموع الثورية كانت تدرك أن الْمُستهدف من الثورة في حقيقة الأمر لم يكن «مبارك»، بل النظام، والنظام لا يعني مبارك ولا يعني «حبيب العادلي»، النظام يعني الهيمنة الأمريكية وتوابعها في الداخل.

وهذه الثورة التي أتت بالإسلاميين إلى سُدَّة الحكم حتى هذه اللحظة ثورة داخل الإطار, داخل الإطار الأمريكي, داخل الحدود الاستراتيجية الأمريكية, وما زالت تلعب طبقًا للمحددات الرئيسة للهيمنة الأمريكية عبر كل المستويات السياسية منها والاقتصادية!

وهذه الطنطنات التى نسمعها بين الحين والآخر من أن السياسة تتطلب هذه اللقاءات وتلك الاجتماعات؛ فصراحة لا أجد إلا ردًّا وجيهًا جدًّا لظريف من الظرفاء يقول: «إن البراز سيظل برازًا نتن الرائحة، ولو حاول البعض وصفه بأنه خلاصة وعصارة خبرة حياتية يومية للإنسان»!

ولكن السؤال التأسيسي هنا هو كيف يُقرأ كل ذلك التماهي وعدم الممانعة فى ضوء القواعد الشرعية في الولاء والبراء؟ أم نحن نرفض العلمانية نظريًّا، وعمليًّا لنا قول آخر؟!

أم يا تُرى نحن نستبطن العلمانية في رؤيتنا ولا نشعر بذلك؟! أم أن قواعد المصلحة والمفسدة أصبحت مثل آلات الموسيقى: من الممكن أن تعزف أي شيء فقط تحتاج لمن يجيد العزف؟! وكيف نقدر أن نجيب من يطعن على مواجهتنا لإيران والمشروع الشيعي ويسألنا: ولماذا لا تواجهون المشروع الأمريكي ؟! وسؤاله هذا له وجاهته!

دعوني أختم فى النهاية بقصة وليد الحاج المعتقل السوداني السابق في جوانتانمو، والذي كان يحكي فيها عما حدث له ولإخوانه في مأساة مذبحة جانجي أفغانستان، نوفمبر ٢٠٠١- والتي حوصر فيها المجاهدون هناك لأيام وماتوا من الجوع والغرق والقتل!

يقول وليد محمد حاج فى شاهد على العصر مع أحمد منصور ٢٠١٠م: «نعم، بعد ما أخلونا في الكونتينرات أتذكر موقفًا لا أنساه أبدًا للصليب الأحمر، فتاة من الصليب الأحمر، الشباب جوعى عطشى، أتذكر هذا الشخص الذي كان أمامي، هذه الفتاة من الصليب الأحمر مدت تفاحة للأخ، الأخ أراد أن يأخذ التفاح، رفضت إلى أن يتم التصوير من قبل الكاميرات وهو يأكل هذه التفاحة من يد الصليب الأحمر! هذا الأخ لما وجد أن هذه الفتاة أرجعت التفاحة منتظرة الكاميرات تصور المنظر رفض أن يأخذ التفاحة منهم». انتهى

انظر هنا! فتاة الصليب الأحمر لم تُرد أن تُعطي التفاحة لإنسان جائع لم يأكل منذ أيام إلا وهي تصوره؛ حتى تخرج الصورة كالآتي: «المدنية الأمريكية في رقيها! تعطي الهمجيين أصحاب الوجوه الكئيبة تفاحة الحياة, وكأن مذبحة لم تقع منذ لحظات، وكأن مئات من الضحايا لم يسقطوا!

ولكن هكذا هي اللحظة الأمريكية! تريد أن تعطيك تفاحة الحياة؛ لكي تأخذ هي منك الصورة التي تصدرها للعالم عن نفسها!

إذن التفاحة مقابل المصلحة, التفاحة مقابل التدخل, التفاحة مقابل دوام الهيمنة, التفاحة مقابل بقاء النظام!
وإلى هنا تستطيع الرجوع إلى بداية المقال، وتقرأ كلام «ميشيل حنا»، و«تمارا كوفمان»؛ لتدرك لماذا صدرنا هذا المقال بتلك المقولات!



قصة العلمانية والإسلام إلى الانقلاب الدموي

(١/٢)

طارق منينة

لا شك أن تفرُّق المسلمين، وتلاعب الأهواء بالمتسلطين على الأمة، أديا إلى ضياع مجد دنيا المسلمين، وإلى خفوت أضواء مدنيتهم، والتي كانت مؤلفة من جميع الشعوب والأجناس، وضياع ممالكهم ودولهم، سواء كان ذلك في الشرق الإسلامي، أو في الغرب الأندلسي.

إنه يمكن تشبيه وحدة الأمة بعقد الخرز، إذا التهى به عابث غافل أو متلهٍّ طائش لن يبقى منه شيء بعد انفراطه وشتاته وضياعه، وهذا هو بالضبط ما حدث بسقوط آخر معقل سياسي من معاقل المسلمين في الأندلس (الغرب)، ثم بعد ذلك بقرون سقوط الوحدة الإسلامية (في الشرق) التي استعادتها الدولة العثمانية القوية، التي تدهورت هي أيضًا فيما بعد بفعل عوامل داخلية، ثم بفعل قوى خارجية متربصة كالعادة.

أما قبل سقوط الأندلس، فقد كانت أمة الإسلام في الشرق والغرب منتجة حضاريًّا في كافة علوم الحضارة والمدنية، وعندما سقطت غرناطة سقطت معها كافة علوم المسلمين ومكتباتها ومختبراتها وأدواتها البحثية واكتشافاتها في يد الغرب المسيحي، ذلك الغرب الذي كان يعيش ظلامًا هائلًا، وجهلًا فريدًا من نوعه، بينما كانت ممالك المسلمين وحواضر الإسلام تعيش ازدهارًا هائلًا في جميع المجالات العلمية، في الطب، والصيدلة، في علوم الفلك، والكيمياء، في الرياضيات، وغيرها من العلوم المدونة والفاعلة في الحضارة.

ترك المسلمون روائع حضارتهم وراءهم في ربوع مدائنهم المنهارة، هربًا إلى معاقل الشرق، فورثتها أوروبا وصنعت منها حضارتها، وأنارت بها مدنها وممالكها، وجعلتها مبادئ لها في اكتشافاتها العلمية وحركتها العملية والعقلية.

أثناء ذلك كانت تتطور فلسفة علمانية مادية، بفعل عوامل مادية ونفسية، منها الانتشاء بالانتصار على الكنيسة وتحجيمها.

وبين مرحلة سقوط آخر معقل حضاري للإسلام في الغرب، وغزو نابليون بونابرت لمصر، كان الغرب قد بنى -من علوم المسلمين الكونية والعقلية- مدنيةً كانت تتطور كل يوم، وهي تعمل على إزاحة سلطة الكنيسة، التي كانت تغار من تلك العلوم المضيئة من قبل في المدائن الإسلامية النظيفة والزاهية والقريبة!

فبفضل تتلمُذ كثير من الغربيين على العلم الإسلامي -العلم العقلي والتجريبي- تم زحزحة الفكر الكنسي والاشتباك معه، حتى ساندته القوة والثورة فتخلصوا من سلطة الكنيسة وتعاليمها اللاهوتية، تخلص أولئك التلاميذ من ذلك التعصب الكنسي البشع، الذي كان يعاقبهم بالموت والحرق والإدانة والنفي؛ لأنهم أرادوا الاستفادة من مدنية الإسلام وأهله وعلومهم وفهومهم وأخلاقهم وفروسيتهم، التي كانت تتسلل كلماتها وأنوارها وإشاراتها ببطء داخل المعاقل الكاثوليكية العتيقة، ولا يخفى أن مصدر تلك العلوم هو ذلك العلم الجديد الذي وضع الله مبادئه ومناهجه في القرآن، والتي مضى بها المسلمون يدرسون ويكتشفون علوم الكون التي أودعها الله في خلقه وقوانينه.

لم تستطع الهمجية الكاثوليكية الصبر على الإسلام أكثر من ذلك؛ فقد كان يقشع عنها ظلماتها الساترة، وخرافاتها المتكسبة بالباطل، وسلطتها المادية والروحية؛ فراحت تهاجم ممالك المسلمين المتنازعة حتى سقطت جميعها!

وترك الإسلام -بعد هروب المنتسبين إليه في مدائنه الغربية- مئات الاكتشافات الطبية والفلكية والرياضية والجغرافية والكيميائية، والأدوية والصيدليات والمستشفيات والكليات والمختبرات والمكتبات والآلات العلمية في كافة مجالات الحياة والعلوم، بينما كانت آخر طائفة من المسلمين تهرب مذعورة الى المغرب العربي.

وبعد الحروب الصليبية المسيحية بدأت الحروب (الاستعمارية) العلمانية. وبدأت ظلال العسكر الغربي تتخايل في الصحراء العربية وهي تتقدم للغزو، وجاء نابليون بجيوشه الاستعمارية ومعه مطبعة وأساتذة وعلماء ورجال تبشير كنسي! ومع العلماء مواريث الإسلام العلمية، المسروقة أو المزوجة، وما بنوا عليها من اختبارات ومكتشفات.

جاءوا -كما بيّن (إدوارد سعيد) في (الاستشراق)- يحملون نظرة احتقارية للشرق الإسلامي (مبنية على نظريات علمية؛ كالتي انقلب بها هتلر على غربه فيما بعد!)، غاضين الطرف عن أن ذلك الإرث الإسلامي العريق هو الذي علمهم كيف يتنورون ويكتشفون ويبحثون؛ بل وغاضين الطرف أيضًا عن كل ما استفادت منه الأمم الغربية من وسائل في الجراحة والطب وطرق للمداواة، وأجهزة وأدوات ومستشفيات وصيدليات، ومختبرات وأسماء في كافة مجالات العلوم، وغير ذلك، ومدن نظيفة وزروع وجنات وعيون.

ولا شك أن إقبال الشباب الأوروبي على الدراسة في حواضر الإسلام في الغرب جعلهم ينفرون من ذهنية الاحتقار الكنسية، التي تفاقمت بالحسد، وإغراء السلطة، واكتناز الأموال والاستئثار بها من دون الناس المجهلين والفقراء، أما أولئك الشباب فقد فتنوا بمعالم حضارتنا.

إلا أن أوروبا بعد تمكن الفكر العلماني منها في القرن الثامن عشر وما بعده، وانتهاء الأجيال التي كانت تعطي للمسلمين حقهم من الاحترام والتبجيل =أصبحت وريثة للاحتقار الكنسي، ورواسب صراع الكنيسة مع الإسلام؛ ففقد الغرب النظرة الإنسانية التي تعترف بأستاذية المسلمين للعالم طوال مدة طويلة تمتد لقرون، وأقبل المستعمرون للغزو والنهب وهم يصورون لجنودهم أن الشرق أدنى أقل من أن يحكم نفسه بنفسه!

وجاء الشباب الجديد والنبت الحديث وهو لا يعلم بصرخة (الفارو) القديمة -صرخة القرطبي الأسباني المتعصب-؛ فقد اختفت آثار الصرخة المدوية، وهو رجل من كبراء المتعصبين المسيحيين في القرن التاسع واسمه (الفارو)، وقد قال متألـمًا:



«يطرب إخوانى المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة (المحمديين)، لا لتفنيدها، بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق؛ فأين تجد اليوم علمانيًّا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذى يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل؟ وا أسفا! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب، ليسوا على علم بأي أدب ولا لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة، وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب، وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية -إذا ذكرت الكتب المسيحية- بأن تلك المؤلفات غير جديرة باحترامهم».

وهو نَص مشهور وتجده في كثير من الكتب التي تكلمت عن حضارة الإسلام، ذكره روجي جارودي، ومراد هوفمان، وزيغريد هونكه، وجرونيباوم، وغيرهم.

ولا شك أن إيقاع هذه الكتابات التاريخية المنصفة، والتي ترجع الفضل للعرب أو للمسلمين في إفادة أوروبا

من كافة علوم الحضارة =يزداد وقعها يومًا بعد يوم، وذلك من يوم كتب غوستاف لوبون عن حضارة العرب أو الإسلام، إلا أن تلك الكتابات العلمية ما زالت حبيسة الأكاديميات، وقد تعرض على موائد طعام الدبلوماسيات.

خرج نابليون من مصر ومعه فلوله العلمية والتبشيرية، وتمكّن محمد علي من الانقضاض على الحكم، بعد تخلصه من المماليك في أعظم مجزرة جرت حينذاك في التاريخ، كانت الدولة العثمانية العلية لا تزال محتفظة ببعض هيبتها وعلومها، وأما في آخر مراحل وجودها فكانت تستعين بنظم غربية في السياسة والحرب، وكان الكماليون يورطونها في حروب وضياع، بينما كان الغرب يلف حبال الموت حول الرأس المتهالك!

حاول محمد علي أن يوفق بين ما تركه الفرنسيون ودكتاتوريته الدموية العنيفة، أي التلائم بين التطور على الطريقة الغربية والتسلط الاستبدادي الدموي! مع نظم ذاتية نجحت بصورة ما في بناء لم يتصاعد نموه أو يتطور لتكوين ما؛ فالعلم لا يجتمع مع الاستبداد، كما أن الحضارة أي حضارة لا تصمد طويلًا إذا نخر سوس الأخلاق السيئة فيها، والجهل من أشنع تلك الأخلاق!

نجح الاحتلال الأوروبي في الاستعانة بنصارى الشرق، خصوصًا نصارى جبل لبنان، بعد أن استغل المشاكل التي جرت بينهم وبين الدولة العثمانية، كما اعتمد على روابط قديمة بين الصليبيين والموارنة في لبنان، بعد أن تثقفوا بثقافته وشربوا من روح الثقافة الغربية المتمردة على الأديان.

وبينما كانت تتشكل في حمايته طليعة من أبناء المسلمين ومن نصارى مصر كانت قد تعلمت فلسفته المتمردة على الدين =نزحت طليعة الشام النصرانية إلى القطر المصري، ومن مصر بدأت التغريب، وراجت الدعوات التي زعمت أن سر التقدم هو ترك الأديان، وأنه كلما تحلل المرء من دينه أحدث تقدمًا في العلم والحياة!

وتناسى كثير من الناس أن الإسلام بعقائده ورؤيته الحقيقية للكون وأصوله القيمية والعلمية صنع تقدمًا فريدًا في التاريخ الإنساني، منه انبثقت العلوم واكتُشفت المبادئ العلمية والفوائد المادية من الطب إلى الرياضيات والفلك، تناسوا أن الإسلام دين إيمان وعبادة، وعلم وحكمة، وسياسة ملك ودولة، وأساس عمران وحضارة، وأن الإسلام دين ودولة، ملة وأمة. كما قال (محمد رشيد رضا) قديمًا.

حملت تلك الحملات التغريبية العنيفة في طياتها رواسب الصراع مع الموقف الكنسي من العلم؛ فادعت في بلاد الإسلام -على يد روادها من العرب- أن الإسلام شبيه بالكنيسة، وأنه لذلك لا بد من فصل الدين عن السياسة والعلم والأخلاق، حتى يحدث التقدم!

قال غالي شكري: «... فقد بدأت المرحلة الثانية بالفصل بين الدين والدولة، وانتهت كما نرى بالفصل بين الدين والعلم، وقد كان ذلك أقصى ما يستطيع فكر النهضة المصرية أن يصل إليه.. جاء طه حسين بما يشبه (الضربة القاضية)؛ ليقول إن العاطفة الدينية والوجدان الديني ومعتقدات السلف لا علاقة لها بالعلم وقوانينه وتجاربه ورؤاه ومقدماته ونتائجه». [النهضة والسقوط، لغالي شكري، ص٢٥٢]



وتناسوا أنه لولا سياسة القرآن في تشكيل العقل المسلم ما حدثت حضارة المسلمين، ولا تخلقت منها علوم العمران الأوروبية الأصيلة رويدًا رويدًا!

في ظل التدهور وعوامل التخلف والجهل، تمكّن التصوف اللاهوتي السلبي من معاقل علمية إسلامية، منها الأزهر الشريف، كما تغلغلت النظرة السلبية والأمية العلمية في مفاصل الجسد الإسلامي المريض؛ فجاءت طليعة الغرب تزعم أن الإسلام هو سبب الجهل والدروشة والتخلف، وعدمِ الأخذ بأسباب التقدم والرقي والحياة.

وتناسى كثير من الناس أن الإسلام هو من صنع الحياة الروحية والعقلية والعلمية معًا، وأنه هو من نبّه على فاعلية الأسباب بقيومية الله، ونبه على علوم الكون وخلق مبادئها الشاملة، وأن الحركة والنشاط أصل من أصول العلم والحياة في الإسلام، وأن المسلم بطبيعته الإسلامية «حارث همام»، زاهد مقدام، وأن الإسلام هو من خلق الوحدة، والتحم مع الشعوب بتسامحه ورحمته وأخوته، لا كما زعم البعض بإرهاب وقسوة وضرائب حاول الناس أن يتخلصوا منها بالإسلام، كما تزعم الأساطير المسيحية والعلمانية معًا!

انفرط عقد السياسة الإسلامية وانفرط عقد العلماء يومئذ، ولم يبقَ من العلماء الذين كانوا يعون تلك الحقائق الفريدة -في ظل وجود الاستعمار الغربي- إلا قلة. والمثير للتأمل أن مرض الفكر والتصور كان قد توغل في جامعات إسلامية ذات شأن.

وما هو أكثر إثارة وريبة أن كثيرًا منا اليوم -نحن شبيبة الإسلام- راح يحارب أولئك العلماء الأفذاذ الذين وقفوا للاستعمار وجوقته العلمانية، بعد أن فصلوا الظروف التي عاش فيها أولئك العلماء، فسقط بذلك كثير من تاريخنا الحديث في قبضة العلمانية لغرض العلمنة! في وقت راح كثيرون ينشرون فقط ما يقال اليوم إنها أخطاء للعلماء، ومنها بالفعل أخطاء علمية وفكرية حقيقية، ومنها ما ليس كذلك، لكننا جعلناها هي الأصل فرميناهم بالتبعية للاستعمار والماسونية، وهذه هي أكبر مصيبة تخللت عقولنا حتى اليوم، فلم ننصف روادنا بينما رحنا نقف نفس الموقف الصليبي والصوفي والتغريبي القديم منهم! ومن هنا، ومن هذه الثغرة، سقطت حقائق ومعارف علمية إسلامية سياسية وقيمية، تاريخية وحضارية، وسقط الإنصاف والعدل والرحمة!

فبينما كان هؤلاء الرواد الأوائل في العصر الحديث، وفي وجود خلل عظيم في المجتمع، وفي وجود استعمار متمكن من البلاد تمام التمكن، تساعده في ذلك إدارات متمكنة تزيّف كل شيء، وتعيش على العبودية المزرية للغرب، بينما كانوا يحاولون فعل شيء مفيد للأمة، ليس في مصر وحدها، ولكن في كافة بلاد الإسلام المحتلة، بينما كانوا يفعلون ذلك بكل حيلة ممكنة ودفاع متيسر، كان يقف على الجهة الأخرى علمانيون يشغلهم شيء واحد، وهو التخلص من الإسلام في كافة مجالات الحياة، سياسية، وثقافية، واقتصادية، واجتماعية!

التخلص منه كروح للحركة السياسية، وكروح للحركة العلمية، وكروح للفكرة الأخلاقية المنبثقة عن القرآن والراسخة في علوم الإسلام كلها، والتي وجدت حقيقة في الواقع العالمي المادي المحسوس، الذي أنشأته تلك العلوم.

كانت هناك حركات سياسية ودينية في العالم الإسلامي تحاول استعادة ما فات، منها حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، ثم حركة الإخوان فيما بعد في مصر، الحركة الوهابية كانت تعي الأزمة الدينية والسياسية في المنطقة، ولذلك حملت حملة عنيفة على الخرافات والعصبيات في الجزيرة العربية، كما حاولت محاربة زعامات كانت تخرب في منطقة الجزيرة العربية -مثل ابن الرشيد- وحاولت دولة ابن سعود الوليدة يومذاك أن تنبه رأس الدولة العثمانية بالخطر، إلى أن حوصرت دولة الخلافة وسقطت بالحصار الأوروبي، وبخلخلة جماعة تركيا الفتاة العلمانية التي كانت منذ زمن في سدة الحكم! وقد كان ابن سعود شديد التعلق والإخلاص للدولة العثمانية على كثرة ما يراه من سوء معاملتها؛ كما قال محمد رشيد رضا. [انظر: المنار، سبتمبر ١٩١٣]

أما ما كان قد أذاعه العلماء الأفذاذ الأبطال من أمور فريدة في تاريخنا العلمي والحضاري، والسياسي والاقتصادي، فقد ورثه رشيد رضا ومعه ثلة من العلماء، ثم البنا ومعه خيرة من العلماء والدعاة، وهذا الأخير ورث عن رشيد رضا قيادة مجلته المنار، كما ورث العلم الثري الذي كانت تبثه في عالم الإسلام كمحاولة فريدة لتفهيم الأمة، وتنبيهها لمحاولات التغريب والتخريب.



لم تترك الدولة -النصف علمانية والمتحالفة مع الاستعمار- حسن البنا وريث المنار والأزهر يقيم حركة سياسية فعلية لاستعادة زمام الأمور، فأطلقت عليه رصاصات الغدر بعد أن تحالفت الرصاصات الخائنة مع مدافع الإنجليز الطليقة!

لقد تسبب محمد علي في تكالب الإنجليز على مصر بعد أن خرج الفرنسيون منها! والأسباب في ذلك كثيرة، لكن الرجل الذي أقام دولته على الإرهاب وسفك الدماء بدلًا من أن يمد لنهضته بطرف طويل وأصيل ومباشر إلى الإسلام، راحت الإغراءات الغربية والفتن الملوكية تغريه بالبعد عن مصدر إشعاع الشرق والغرب!

ومن رواسب تلك الأوضاع تغلغل نصارى الشام في مصر كما سبق، وقد عملوا على إنشاء الصحف والمجلات العلمانية، وهي التي عملت بمساعدة المحتل على تغيير وجهة مصر السياسية والفكرية؛ لتكون وجهة لا هي إسلامية صرف ولا هي أوروبية صرف! بعكس وجهة تركيا التي تغربت تمامًا على أيدي عصابة (تركيا الفتاة) التي اعتقلت الخليفة فيما بعد تغلغلها في الدولة المتهالكة، وألغت الأذان واللغة العربية، ووضعت القبعة على رأس الرجال بدلًا من الطربوش الشرقي!

وتمت المواجهات الفكرية الكبرى، وكانت المحاولات النصرانية الشامية التي استوطنت مصر تسعى إلى خلخلة المفاهيم عن علاقة السياسة بالدين، ثم بالعلم، ثم فيما بعد بالأخلاق!

وصار الاصطفاف العلماني تتبين معالمه رويدًا رويدًا، وقد تمثل في يعقوب صروف، وشبلي شميل، وفرانسس مرّاش، وفرح أنطون، ومعهم إسماعيل مظهر، وإسماعيل أدهم، وأحمد لطفي السيد، وغيرهم، وهذا الأخير -كمثال- «استبعد الإسلام كطرف في معادلة التقدم». [النهضة والسقوط لغالي شكري، ص٢٣٨]

وعلى الجانب الآخر جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ورفيق العظم، ومصطفى الغرايني -صاحب كتاب الإسلام روح المدنية-، والمنفلوطي، ومحب الدين الخطيب، وغيرهم.

اشتهرت حوارت عبده ورشيد رضا والأفغاني ضد العلمانية، وسجلت المحاورات في كتب غالبًا ما نغض الطرف عنها لموانع فكرية!

أما الدولة والسياسة والقوانين، فكانت تساق بسياط أولاد محمد علي وورثته، وبرعاية الإنجليز المحتلين، وكانت تلك السياسات تسند الفريق العلماني المغير للحقائق التي تطرقنا إليها، حتى نشأت الناشئة (النبت، بتعبير فرح أنطون!) على ذلك، وكانت حركة الإخوان -وريثة الجبهة الإسلامية- في وقت متأخر تواجه وحدها مع بعض العلماء السلفيين هذه القوى الفاعلة المتمكنة في المجتمع.

[وللحديث بقية في العدد القادم إن شاء الله]

الدولة العثمانية والخلافة المنشودة

حسام عبد العزيز

تعطيل عقوبة المرتد.. فرض المكوس.. احتضان بعض العقائد المنحرفة.. إشاعة الظلم.. التعطيل الفعلي لرجم الزاني المحصن.. عدم تجريم اللواط..

لا أدري أهي نوستالجيا إسلامية تلك التي تجعل البعض يطلق اسم «الخلافة» على وجه المدح والتبجيل، على دولة انتشرت في (بعض) حقبها التاريخية هذه المنكرات؟

أم هو واقع مؤلم دفع هؤلاء إلى الإعجاب بأية دولة مسلمة موحَّدة قادرة على تهديد الأعداء، ولو كانت تلك الدولة لها حظ ظاهر ونصيب غير يسير من خطايا الملك العضوض المهدر للشريعة، بدرجة فاقت أحيانًا ما سبقها من ظلم وإهدار للشرع في التاريخ الإسلامي؟

لقد تعرضت الأمة لقدر كبير من التطرف في السرد التاريخي لم تنجُ منه الدولة العثمانية، فبينما حرصت الأنظمة العلمانية العربية في المناهج التعليمية على وصف الدولة العثمانية بالاحتلال وتجريدها من أي مناقب في مقابل نعت الاحتلال الفرنسي بالحملة ذات المميزات =كان التطرف المقابل من بعض الدعاة والمؤرخين الإسلاميين الذين تحسروا على ضياع الدولة العثمانية أيما تحسر وعزوا زوالها إلى ضعفها وتواطؤ الغرب، غاضين الطرف عن مثالبها الشرعية وانحرافاتها العقدية أو مقللين من تأثير ذلك على سقوط الدولة.

لقد شجعت الدولة العثمانية منذ بداياتها وحتى نهايتها عددًا من الطرق الصوفية المنحرفة، وقرَّب السلاطين مشايخ هذه الطرق إليهم، وتفشت النزعة الصوفية بين المواطنين، وانتشرت عقيدة وحدة الوجود، وظهرت الطرق المولوية والنقشبندية والرفاعية والبكتاشية، وتأسس أقوى جيش نظامي للدولة العثمانية في عهد أورخان (ثاني سلاطين الدولة) من الطريقة الصوفية البكتاشية، فدان الجند لمشايخها بالولاء والسمع والطاعة، وقد عُرف هذا الجيش باسم الينيجارية (وحُرفت الكلمة إلى الانكشارية حسب النطق العربي).

وفي القرن الخامس عشر، فرض محمد الفاتح نظام «الالتزام» المخالف للشريعة، وهو نظام لجمع المكوس، فوضت بموجبه الدولة طبقة من الأثرياء يعرفون بالملتزمين في مهمة جباية الضرائب من الفلاحين، بعد أن يدفع هؤلاء الأثرياء مقدمًا مبالغ مالية للدولة.

وقد ساعد هذا النظام الجائر الملتزمين على استغلال الفلاحين وابتزازهم بأخذ مبالغ أكبر من قيمة الضريبة الأصلية، ولم تسلم الدولة العثمانية من هذا النظام إلا في عهد السلطان عبد المجيد الأول، الذي ألغاه لكنه استبدل به نظامًا آخر لجمع الضرائب أقل سوءًا.



وفي القرن التاسع عشر، دخلت الدولة العثمانية معارك مع الوهابيين في جزيرة العرب، ثم تطورت إلى حربين بين محمد علي باشا والي مصر من جهة، والسلطانين محمود الثاني وعبد المجيد الأول من جهة أخرى، ولعبت أوروبا دور الوسيط بين الفريقين، وقررت الضغط على الطرف المنتصر (محمد علي) وتقزيمه والانحياز إلى كفة السلطان، بغرض إحداث التوازن اللازم لإنهاك الجيشين المصري والعثماني، اللذين كانا قد منيا بهزيمة أمام الجيش الفرنسي الإنجليزي الروسي، في معركة نفارين عام ١٨٢٨م.

بدأت الدولة العثمانية في عهد محمود الثاني وعبد المجيد الأول تتجه إلى علمنة التشريع على استحياء، تحت مسمى الإصلاح ما عُرف بـ «التنظيمات»، في محاولة أخيرة لإنقاذ الدولة التي أخذت رقعتها في الانكماش، فكان البدء في تحديث الأسطول والجيش بموجب مرسوم جولهان الذي تبعته حزمة من القوانين أسفرت عن إلغاء حد الردة في عام ١٨٤٤م، في الوقت الذي كان رجم الزاني قد هُجر مجتمعيًّا قبل هذا التاريخ وما عاد يُنفَّذ.

كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب قد بدأت حينئذ في مكافحة البدع والشركيات التي تلبست بها جزيرة العرب، بينما شرع العثمانيون يولون وجوههم شطر أوروبا ليكتبوا ختام دولتهم بأيديهم، فصدر خط همايون عام ١٨٥٦م، والذي لم يشر من قريب أو من بعيد لشيء من مبادئ الشريعة الإسلامية ونص على إلغاء الجزية المفروضة على غير المسلمين.

وبعد عامين من هذا التاريخ، صدر قانون العقوبات الذي استند إلى قانون نابليون، ليعلن العثمانيون بذلك صدور أول حزمة قوانين علمانية تستغني عن العقوبات الواردة في الشريعة الإسلامية كالرجم، وتلغي تجريم اللواط والسحاق، وتبدأ في تأسيس إنشاء محاكم علمانية على النسق الفرنسي.

ولا يخفى التنبيه ها هنا على أن إلغاء الحدود تم بموافقة شيخي الإسلام وقتئذ، الخطيب سيد وهاب أفندي، ومصطفى عاصم، وبذريعة مراعاة مصلحة الدولة، على غرار المصالح والمفاسد السلفية الإسكندرية في زماننا. (شيخ الإسلام هو أعلى منصب علمي ديني بالدولة).

زعمت الدولة العثمانية الاستناد إلى المذهب الحنفي في التشريع، لكن قانونها المدني المعروف باسم المجلة لم يعرف من الشريعة الإسلامية سوى القليل كالعقود والإجارة والضمان والشهادة وسائر المعاملات الاقتصادية، فيما تجاهل هذا القانون الشريعة فيما يتعلق بقوانين الأسرة، وفيما يخص قوانين العقوبات التي كانت قد وُضعت بالفعل وفق النظام الأوروبي.

وفي منتصف القرن التاسع عشر، بدأ الميرزا حسين علي النوري -الذي عُرف لاحقًا باسم بهاء الله- بتأسيس الديانة البهائية، فادَّعى هذا الأحمق النبوة، ونادى بإلغاء تعاليم الإسلام، فما كان من السلطان عبد الحميد الثاني إلا أن حبسه بدلًا من أن يقتله حدًّا، في أبرز تطبيق عملي فاضح لإلغاء الحدود؛ لتبقى البهائية جرثومة في جسد الأمة إلى يومنا هذا.

لقد بلغ الانحراف في بعض فترات الدولة العثمانية مبلغًا خطيرًا، لاسيما في الفترات الأخيرة، وصاحب هذا الانحراف انهيار تدريجي في قوة الدولة التي لم ينفعها كل ما فعلت لإنقاذ نفسها من السقوط، ليبقى زوال الدولة العثمانية شاهدًا على مصير الذين يفكرون في بناء الدول أو الحفاظ عليها بالطرق البراجماتية على حساب الشريعة وبدعوى المصالح والمفاسد.

لا أهدف بهذا المقال إلى تشويه الدولة العثمانية؛ لكنني أسير به خطوة على طريق وضع هذه الدولة في مكانها الصحيح، كدولة قوية لها الكثير من المآثر على فترات من الظلم والمخالفات الشرعية.

ولتحفيز المسلمين على طلب دولة الخلافة التي هي على منهاج النبوة، كما بشر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فليست غايتنا أي دولة موحَّدة مترامية الأطراف تغزو وتنتصر وحسب، بل دولة تنشر العدل وتقيم الدين واقعًا بين الناس.

ولا شك أن الدولة العثمانية تسمى خلافة بالمعنى اللغوي كغيرها من الدول التي تلت الخلافة الراشدة؛ لكنها ليست كذلك إذا أطلق الاسم بغرض تشبيهها بالخلافة الراشدة على سبيل الثناء، فإنما تطلق الخلافة بمعنى المدح على الخلافة الراشدة، وإنما تمدح الممالك والسلطنات التي تلت الخلافة الراشدة بما فيها من خير ولكن لا تمدح باسم الخلافة مدحًا يضيع الفرق بين الخلافة الراشدة وبين صور الملك الجبري والعضوض التي لم تخل منها دولة بعد الخلافة الراشدة إلا نادرًا.



وتجدر الإشارة ها هنا إلى أن المخالفات المتعلقة بالشريعة لم تكن في كل حقبة من حقب الدولة العثمانية، بل لم تشع إلا في طور الضعف منها وبعد محاصرة أوربا لها ووصول بعض السلاطين المتأثرين بالعلمانية للحكم؛ كمحمود الثاني، وإن وجدت جذورها من قبل، كما يحسن التنبيه على أن هذه الإشكاليات في الدولة العثمانية وجدت بعض معالمها عند الأمويين والعباسيين والمماليك بدرجات أخف وبدرجات أشد أحيانًا في بعض الجوانب.

ولقد تعمَّدتُ غض الطرف عن مناقب الدولة العثمانية ولم يكن دافعي لذلك قصد التشويه كما تقدم، ولكن رأيت المقام مقام تبيين لعيوب تاهت وسط تصفيق المؤرخين وإطراء الدعاة فـحُرمت الأمة من الانتفاع بهذه الدروس القاسية.

بل إنني أزعم أن الحكم بشكل عام على الدولة العثمانية قد يكون إيجابيًّا، لكن التبجيل المفرط لهذه الدولة يُنسي هذه الإشكاليات، ويُنسي أن كل نظام جائر قام منذ سقوط الخلافة الراشدة كان له حظ مما نحن فيه الآن.

إنها محاولة كذلك للإنصاف والتعاطي مع الجنس البشري بعين التوازن، ولقد وعينا من دروس التاريخ كثيرًا من هذا، فمعتصم «وامعتصماه» هو الذي امتحن الإمام أحمد في خلق القرآن وحبسه وجلده، والحجاج الذي فتح الله على يديه ما شاء من فتوحات هو قاتل عبد الله بن الزبير وسعيد بن جبير، ومحمد الفاتح فاتح القسطنطينية هو صاحب أول تشريع عثماني يخالف الشريعة، وعبد الحميد الثاني الذي يتغنى الناس برفضه تسليم فلسطين للصهاينة هو أحد الأسباب في انتشار البهائية حتى يومنا هذا، والينجارية الصوفيون الذين كانوا أبرز عوامل قوة الدولة العثمانية هم أحد أهم أسباب ضعفها بانقلاباتهم المتكررة وتدخلهم المستمر في سياستها على طريقة عسكر مصر، حتى تخلص منهم السلطان محمود الثاني ودك معاقلهم بالمدافع.



كل شيء هادئ على الجبهة المصرية!

محمد فرحات

تعد رواية (كل شيء هادئ على الجبهة الغربية) التي أبدعها الأديب الألماني (إريك ماريا ريمارك)، من أهم ما كتب في العصر الحديث حول الحروب وآثارها الرهيبة، وبخاصة أثرها المدمر على الإنسان والإنسانية.

حيث تترك الحرب آثارها على النفوس، وعلى التركيبة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع ككل، بنفس العنف الذي تترك به آثارها على البنايات التي تهدمت والمراكب التي تدمرت، والأراضي التي احترقت.

وأهم ما يميز هذه الرواية أنها بمثابة شهادة حية من كاتبها (إريك) على أهوال الحرب وآثارها، حيث شارك بنفسه متطوعًا كجندي في الحرب العالمية الأولى.

وانتهت الحرب، وعاد (إريك) من الجبهة، لكن الحرب لم تنتهِ أبدًا بداخله، وظل لسنوات يتألم في صمت، ويعاني جراح الحرب التي خفيت عن من حوله، ولعله لم يبرأ من جراحه حتى ألقى بأحماله الثقيلة على سطور تلك الرواية.

ويسهل على القارئ هضم مفردات الرواية عندما يستحضر الفترة الزمنية التي تعالجها؛ «فالحرب العالمية الأولى التي تدور الأحداث فيها كانت آخر الحروب التي يتلاحم فيها الجيشان تلاحمًا فعليًّا، بل كان الجندي ينظر في عين الجندي الآخر قبل أن يزهق روحه، فالدبابات لم تكن قد نزلت الخدمة بعد، والطائرات لم تكن كذلك تستعمل إلا على نطاق ضيق للغاية، وبالتالي بقي المشاة هم عماد القتال.

وحروب أوروبا كانت تقوم على أساس الرغبة في احتلال الأرض والتمركز فيها، فكان الجنود من الطرفين يتخندقون متقابلين ثم عندما تصدر الأوامر من الضباط المرافقين للجنود بالقتال والهجوم، كانوا يغادرون الخندق صائحين ويهجمون على الخندق المقابل، وقد ينجح الخندق المقابل فى حصدهم بالمدفعية قبل أن يصلوا إليه أو لا ينجح، وفى هذه الحالة يتم القتال بالسونكى إلى أن يتم تطهير الخندق من كل الجنود المعادين، وتكون التكلفة خمسة أو عشرة آلاف جندي في الهجمة الواحدة، وذلك في سبيل تحقيق مائة متر من الأرض كانت تفصل بين الخندقين. وفى اليوم التالى يعود المهزومون لكي يستردوا ما فقدوه بنفس الطريقة.

ولذلك كان ضحايا الأمراض النفسية والعاهات من الجنود المحاربين في تلك الحرب أعلى من ضحايا الحرب العالمية الثانية؛ لأن القتال كان تلاحميًّا كحروب القرن التاسع عشر».

[باختصار من موقع المعرفة: **www.marefa.org**]

وأما عن أحداث الرواية فهي تدور حول الشاب (بول بومر)، الذي نشأ في بلدة صغيرة لا تعرف إلا الهدوء، كانت له أحلام وآمال وصور مشرقة، يرسمها في عقله الغض البريء.كان له ماضٍ طفولي، ومستقبل حماسي، كان له بيت وأسرة، وأصدقاء.

باختصار، كان إنسانًا وله حياة!

ثم تتغير هذه الحياة تمامًا عندما يقرر الشاب الصغير أن يلتحق هو ومجموعة من رفاقه بالجيش، تاركين مدارسهم، وقاطعين لأحلامهم الندية. لقد ألهبت مشاعرهم تلك الدعايات الوطنية الرنانة، وآمنوا وصدقوا أساتذتهم وقادتهم العظماء، الذين دعوهم إلى المجد وإلى نصرة الوطن العظيم.

وعلى عجل قاموا بتدريبه تدريبًا سطحيًّا على حمل السلاح، وعلى بعض الأمور العسكرية، وعلى عجل ألقوا به هو ورفاقه في أتون المعارك الذي لا يرحم.



وهناك، وتحت دوي القصف وبين زخات الرصاص، وبين الدماء والأشلاء، بدأت الحقائق تتكشف، وأخذ الشاب يتلفت حوله في ذهول متسائلًا: ما الذي أتى بي إلى هنا؟! ما دخلي أنا بهذه الحرب؟! ولماذا أدفع أنا ثمنها؟! ذاك الثمن الباهظ، الذي دفعه من أحلامه، وبرائته، وبقايا طفولته. لقد فقد كل معنى جميل في الحياة، لقد فقد إنسانيته!

هذه هي الحقيقة التي يركز عليها الراوي من أول سطر في سطور الرواية؛ حيث يبدأ السرد بحكاية أحداث يوم سعيد، عندما حصلوا على طعام كثير وفير، ولم يكن السبب في هذا هو كرم السادة المسؤولين عن الإمداد.

ولكن لأن كتيبته المؤلفة من مائة وخمسين رجلًا أصابتها قذيفة مدفعية، فتقلص العدد الصالح لالتهام الطعام إلى ثمانين رجلاً فقط، واستمتعوا في ذلك اليوم بالتهام وجبات كل من مزقته القذائف من رفاقهم!

ويقول (بول) واصفًا أول معاركه على الجبهة: « كنا في هذا الوقت حيوانات متوحشة، لم نكن نقاتل، بل رحنا ندافع عن أنفسنا أمام الموت الذي يطبق علينا. لم نكن نقذف قنابلنا في وجوه رجال من البشر، فقد كانوا في نظرنا وقتئذ رمزًا للموت، له أيد وخوذات، يتعقبنا ويروم حتفنا. لقد طغت علينا موجة من الوحشية هائلة جعلتنا في طرفة عين مخلوقات شيطانية وقتلة سفاكين، لم نكن نقاتل ولا نبذر الهلاك إلا من أجل أنفسنا وصونًا لحياتنا، ولو رأى أحدنا أباه في صفوفهم ما تردد في قذف قنبلة في وجهه»!

وبين السطور ينقل لك (بول) مفردات الحرب كما يراها من هو مصطلٍ بنارها، لا كما يراها ويقرأها أي إنسان وهو مستلقٍ في استرخاء على أريكته الوثيرة الدافئة؛ حيث تنتقل مفردات: البنادق، والرصاص، والدبابات، والقنابل، والمدافع، من حيز المعاني اللغوية الباهتة إلى حيز معاني الحياة والموت، بكل ما تحمله كلمة الحياة وكلمة الموت من معنى.

وحيث تنحصر اهتمامات الجندي في الإبقاء على نفسه، ومحاولة التشبث بأي شيء له صلة بالحياة، كهذا الذي هرع لانتزاع الحذاء من قدمي زميله الذي مات للتو! لقد مات بالفعل، ولم يعد في حاجة لهذا الحذاء، ولن ينتفع به في قبره، والحذاء الجيد له أهمية قصوى في الميدان!

وتبلغ ذروة المأساة في ذلك الموقف الذي جسد وحشية تلك الحرب، وما صنعته في النفوس، في مقابل ومضات الإنسانية التي طمسها غبار المعارك. ففي أثناء إحدى المهمات الاستطلاعية ضل الراوي طريقه إلى معسكره، وفتح الأعداء النار بكثافة، فقفز في خندق ليحتمي به من النيران. وفجأة يقفز جندي من الأعداء بجواره، فيغمد خنجره في صدره بلا تردد، ويطعنه عدة طعنات.

ثم يسرد لنا الراوي تفاصيل مؤلمة حول عذاب هذا الجندي الذي لم يمت مباشرة: «إن كل شهقة صدرت عن هذا الرجل كانت تمزق قلبي، بل كان طول احتضاره بمثابة خنجر يغمده في صدري».

وبعد أن لفظ أنفاسه الأخيره أخذ يردد (بول) في ألم ولوعة وهو يناجي القتيل وكأنه يسمعه: «أيها الزميل لم أكن أنوي قتلك، ولو وثبت إلى هنا مرة ثانية فلن أفعل شيئًا يضرك، إذا أمسكت يدك عني، لكنك كنت فكرة تجسمت في خيالي قبل مجيئك، وشغلت فراغ ذهني ، وكان لابد لها أن تلقى نهايتها المحتومة، أنا لم أطعنك، وإنما طعنت هذه الفكرة المخيفة التي تسلطت علي، فكرة المباغتة والمبادأة؛ لكنني أرى الآن وللمرة الأولى أنك إنسان مثلي، كنت أفكر من قبل في قنبلتك اليدوية، وفي حربتك، وفي بندقيتك، أما الآن فلست أرى إلا زوجتك، أو أمك، ووجهك، وزمالتك.

اغفر لي أيها الزميل، واصفح عني، فنحن لا نفتح أعيننا إلا بعد فوات الأوان، لم لا يقال لنا إنكم بؤساء مثلنا؟ وإن أمهاتكم أو زوجاتكم يتلهفن لوعة وجزعًا مثل أمهاتنا وزوجاتنا؟ وإننا سواء في الاحتضار والنزع؟!

اصفح عني أيها الزميل، كيف يمكن أن تكون عدوًّا لي؟ لو أننا طرحنا هذه البنادق والملابس العسكرية لما كنت إلا أخًا لي، خذ عشرين سنة من حياتي أيها الزميل وقم، بل خذ أكثر من هذا، فلست أدري بعد الآن كيف انتفع بهذه الحياة».

ويسرد لنا الموقف الذي يجسد انهيار القيم لدى الإنسان الذي مزقت الحرب إنسانيته، فعندما ذهب (بول) لأم أحد رفاقه الذين قتلوا في المعارك، حاول أن يخفف عنها هول الصدمة، وأخبرها أن ابنها قد مات ميتة رحيمة، حيث أصيب إصابة مباشرة ولم يتعذب.

كان يكذب، وكانت تعلم بأنه يكذب، فلقد شعرت بآلام ابنها وعذابه، لكنه قرر أن يمضي في كذبه مهما كان الثمن.

سألته في تحدٍ: هل تقسم على ما تقول؟

- نعم

- هل تقسم بما هو مقدس عندك؟

- قال في نفسه في مرارة: «هل بقي ما هو مقدس عندي؟! إن هذه المسائل تتضائل بسرعة في نظرنا نحن الجنود!»".

وبعد أهوال وأهوال، وبعدما تدمر بنيان حياته، وأثخنت نفسه البريئة بالجراح التي لا تندمل، يتوقف القتال قليلًا على الجبهة، وتلوح بشائر نهاية الحرب، فيسترخي الشاب الذي شاب، ويتأمل الأفق الذي خلا من دخان المعارك, وصرخات الجرحى, وأشلاء الذين كانوا يومًا ما أحياء.



يتشبث ببصيص الآدمية الذي لاح في الأفق، وينسى كل ما حوله، ويمد عينيه ليلتقط صورة من عالم أحلامه الذي دفنه منذ زمن، ينسى نفسه, وينسى أنه ما زال في ميدان المعركة، وفجأة يدوي صوت رصاصة من بعيد.

وكان هذا هو آخر صوت يسمعه، يسقط الشاب بجوار أحلامه جثة هامدة! انتهى الحلم الجميل، وانتهت حياة شاب برصاصة من قناص كان هناك في الأفق، حيث كان يتأمل ويحلم بالحياة. برصاصة واحدة انتهت أحلام إنسان، وآمال إنسان، ومستقبل إنسان، برصاصة واحدة مات إنسان.

يخرج التقرير اليومي عن حالة الجبهة في سطر واحد لا غير: « كل شيء هادئ على الجبهة الغربية».
نعم، خسارة إنسان واحد في الحرب لا تعني شيئًا لدي أباطرة المعارك!

لا أدري لماذا تذكرت هذه الرواية التي قرأتها في صغري، وأثرت فيّ كثيرًا، وأنا أتأمل حال الشعب المصري الآن، هذا الشعب الذي تم انتزاعه من حلم جميل، كان اسمه حلم: الثورة والتغيير.

و بغير مقدمات تم إلقاؤه في أتون المعارك السياسية، بشراستها، وضراوتها، وقذارتها، ولأنها حرب فلا بد من خسائر على كل الجبهات، المصيب والمخطئ، وصاحب الحق، وناصر الباطل! وكانت خسائر هذا الشعب من أحلامه, ومن أيامه، ومن قيمه وثوابته.

فهناك في الميدان فقد الشعب الكثير و الكثير من الأشياء؛ فقد الكثير من معاني الأخوة، وغابت عنه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ونسي وصية الرسول صلى الله عليه وسلم: «وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا». [متفق عليه]

نسى الأمر بعدم التنازع وعدم التفرق، الذي أمره به ربه في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦] ونسي الكثير من قواعد إدارة الخلاف بين المؤمنين الذي أساسه الإصلاح بين الأخوة المتنازعين؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]

نسي كل هذا ولم يتبق له إلا البأس الشديد، واللدد في الخصومة، حتى وصل الأمر بكثير منهم أنه بلغ منزلة: «وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ». [متفق عليه]

ولأنها الحرب فلا تحدثني عن المصداقية، ففي الحرب كل شيء مباح في سبيل النصر! وفي الميدان أياك أن تتحدث عن قيم الاحترام المتبادل، والاختلاف الراقي.. إنها الحرب!

والحرب لا بد لها من معسكرات، ولا بد للجنود من خنادق؛ فكانت الخنادق (الأيديولوجية)، حيث يعيش الشعب فيها منقسمًا، مشتتًا، ويقضي أوقاته تحت القصف المتبادل، المتواصل.

معارك تلو المعارك، وخسائر تلو الخسائر، وكل لا يبارح خندقه، ولا يتقدم إلا أمتارًا معدودة، ثم بعد كل هذا يخسر ما حققه في هجمة مضادة، ثم تتوالى المعارك.



ستمر الحرب حتمًا كغيرها من الحروب، وستختفي الميادين والخنادق، ولكن أخشى ما أخشاه أن يتناسى الجميع ما تكبدناه من الخسائر، وأن تعتبر القيم والأخلاق التي فقدت في ميادين المعارك مجرد «مفقودي معارك».

ثم يخرج علينا التقرير البارد:

« كل شيء هادئ على الجبهة المصرية»!



المجاز عند ابن تيمية وفتجنشتين

رضا زيدان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن الهدف من كتابة هذا المقال هو إثبات أن شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣٢٨م) قدم نظرة جديدة رائدة للغة والمجاز والكلي -شبه كاملة - تاهت عند الكثيرين لانشغالهم بها من وجه الرد والخصوم وليس من وجه التنظير والتقرير، وذلك بعمل مقارنة مع فتجنشتين (١٩٥١م) الذي اهتم كثيرًا بتحليل اللغة وأثرت أبحاثه بشدة في علم النفس والفلسفة وغيرها؛ بل أجبر العلماء علي توسعة العلوم الإنسانية بدراسة اللغة معها، مع أن نظرته للغة أهملت إلي حد ما أيضًا بسبب تعلقها بالوضعية المنطقية.

وستكون المقارنة علي هيئة خمس فقرات، وترتيبها بحسب رؤيتي لشبكة أفكار الاثنين وكيف بدأت:

الفقرة الأولي:

الكليات لا توجد في الخارج كليات، فلا بد إلا مشخصة معينة. [درء التعارض، ج٥ ص ٩٠]

المنطق القديم كله يخلط بين التصور الصوري وأسماء الأعلام... إن التصور الصوري تدل قيمته على الأجزاء المفردة التي تندرج تحت هذا التصور.[فتجنشتين، لعزمي إسلام، ص ١٤١]

وهذا مدخل أساسي لأهم نص لكليهما:

الفقرة الثانية:

والأمور الكلية الذهنية ليست هي الحقائق الخارجية، ولا هي أيضًا علمًا بالحقائق الخارجية؛ إذ لكل موجود حقيقة يتميز بها عن غيره، هو بها هو، وتلك ليست كلية فالعلم بالأمر المشترك لا يكون علمًا بها. [ج٩ ص١٨، مجموع الفتاوي]

لأننا يمكننا أن نقول: هناك مائة كتاب فإننا نخطئ في التفكير حين نظن استطاعة قول مثل: هناك مائة شيء! لأننا لو تعمقنا في التعبيرات وراء التشابه الظاهري في الصورة بينهما وجدنا أن الأخير قضية خالية من المعني؛ لأن لفظ «شيء» ليس شأنه كشأن «كتاب»؛ بل هو في الواقع ليس تصورًا على الإطلاق... فلفظة «شيء» متغير قضية يوضع مكانه كتاب أو حصان أو ... إلخ [فتجنشتين، ص ١٤٤]

هذا أهم ما في النظرية لكليهما وهو: نفي المعرفة بأي شيء ما دام كليًّا ولا يعرف إلا بإسقاطه على جزئي، وهو صلب الآتي: إنكار وجود الكلي في الخارج يقود إلى إنكار وجود لفظ كلي بلا قيد وإلا فما فائدة التصور الباهت؟!

وفي هذا يقول ابن تيمية منطلقًا من الوحي:

الفقرة الثالثة:

ليس في الكلام الذي يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيد سواء كانت الجملة اسمية أو فعلية؛ ولهذا كان لفظ «الكلام» و«الكلمة» في لغة العرب بل وفي لغة غيرهم لا تستعمل إلا في المقيد. وهو الجملة التامة اسمية كانت أو فعلية أو ندائية إن قيل إنها قسم ثالث. فأما مجرد الاسم أو الفعل أو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فهذا لا يسمى في كلام العرب قط كلمة وإنما تسمية هذا كلمة اصطلاح نحوي وكذلك حيث وجد في الكتاب والسنة بل وفي كلام العرب نظمه ونثره لفظ كلمة؛ فإنما يراد به المفيد التي تسميها النحاة جملة تامة كقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤] ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله تعالى:﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]

وقول النبي: «كلمتان، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

ثم يقول على أمثلة المجازيين كالأسد للشجاعة: لا تستعمل إلا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية كما تستعمل الحقيقة.

فإن قالوا بل القرائن المحيطة بالمستمع مجاز ذكرهم بأن أي لفظ حقيقي أو غيره يحتاج لقرائن للموقف. [مجموع الفتاوي، ج٧ ص١٠١ وما بعدها]

اللفظ لم يدل قط إلا بقرائن معنوية، وهو كون المتكلم عاقلًا له عادة باستعمال ذلك اللفظ في ذلك المعنى؛ وهو يتكلم بعادته والمستمع يعلم ذلك، وهذه كلها قرائن معنوية تعلم بالعقل ولا يدل اللفظ إلا معها. فدعوى المدعي أن اللفظ يدل مع تجرده عن جميع القرائن العقلية =غلط. [مجموع الفتاوي، ج٤ ص٤٩٥]

فتجنشتين:

«ومن الطبيعي أن يكون ما يؤدي إلى الخلط بالنسبة لنا هو المظهر الموحد للكلمات، حينما نسمعها منطوقة أو نجدها مكتوبة أو مطبوعة؛ ذلك لأن تطبيقها أو استخدامها لا يكون ماثلًا أمامنا بوضوح كاف. وخاصة إذا كنا نتفلسف.

إن الأمر يشبه رؤيتنا لما هو موجود داخل غرفة قيادة إحدى القاطرات. فنحن نرى مقابض، كلها متشابهة بدرجة متفاوتة (ومن الطبيعي أن تكون كذلك طالما أنه من المفروض أن تكون جميعها مما نمسك به) إلا أن أحدها يكون خاصًّا بذراع الدولاب الذي يمكن تحريكه بصفة مستمرة (وهو لتنظيم فتحة صمام)، ومقبض آخر خاص بمفتاح التحويلة، بحيث لا يعمل إلا في وضعين، إما لوصل التحويلة أو فصلها. ومقبض ثالث خاص بذراع إيقاف الحركة، الذي كلما ضغط عليه الانسان كان إيقاف القاطرة أشد قوة. ومقبض رابع خاص بمضخة تعمل وفقًا لحركة المقبض إلى الأمام أو الخلف». [فتجنشتين، ص٥٣]



اللفظ الواحد قد يكون له أكثر من معنى في أكثر من سياق، على الرغم من كونه له مظهر واحد خارجيًّا... معنى الكلمة يتحدد بناء على الظروف المختلفة التي تستخدم في حدودها بالفعل. [ص١٥٤]

هذا ربط قوي جدًّا من شيخ الإسلام وفتجنشتين بين الفكر واللغة، ونجد إشارة لابن تيمية عن هذا في قوله: اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًّا بين، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة. [الاقتضاء، ص٢٠٧]

الفقرة الرابعة:

رفض نشأة اللغة بالطريقة الإشارية (اصطلاحية):

نحن نجد أن الله يلهم الحيوان من الأصوات ما به يعرف بعضها مراد بعض، وقد سمي ذلك منطقًا

وقولًا في قول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] وفي قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨] وفي قوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[سبأ: ١٠] وكذلك الآدميون؛ فالمولود إذا ظهر منه التمييز سمع أبويه أو من يربيه ينطق باللفظ ويشير إلى المعنى، فصار يفهم أن ذلك اللفظ يستعمل في ذلك المعنى أي: أراد المتكلم به ذلك المعنى، ثم هذا يسمع لفظًا بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم، من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم؛ بل ولا أوقفوه على معاني الأسماء، وإن كان أحيانًا قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء فيوقف عليها، كما يترجم للرجل اللغة التي لا يعرفها فيوقف على معاني ألفاظها وإن باشر أهلها مدة علم ذلك بدون توقيف من أحدهم.

نعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه، كما يولد لأحدهم ولد فيسميه اسمًا إما منقولًا وإما مرتجلًا، وقد يكون المسمى واحدًا لم يصطلح مع غيره، وقد يستوون فيما يسمونه. وكذلك قد يحدث للرجل آلة من صناعة أو يصنف كتابًا أو يبني مدينة ونحو ذلك؛ فيسمي ذلك باسم لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم في اللغة العامة. [الفتاوي، ج٧ ص٩٢]

وبعدها بصفحات:

ومما يدل على أن هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم، أن أكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربية ليس عندهم أسماء خاصة للأولاد والبيوت والأصوات وغير ذلك، مما يضاف إلى الحيوان؛ بل إنما يستعملون في ذلك الإضافة. فلو كان آدم عليه السلام علمها الجميع لعلمها متناسبة، وأيضًا فكل أمة ليس لها كتاب ليس في لغتها أيام الأسبوع، وإنما يوجد في لغتها اسم اليوم والشهر والسنة؛ لأن ذلك عرف بالحس والعقل؛ فوضعت له الأمم الأسماء؛ ((لأن التعبير يتبع التصور))، وأما الأسبوع فلم يعرف إلا بالسمع، لم يعرف أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش إلا بأخبار الأنبياء الذين شرع لهم أن يجتمعوا في الأسبوع يومًا يعبدون الله فيه ويحفظون به الأسبوع الأول الذي بدأ الله فيه خلق هذا العالم؛ ففي لغة العرب والعبرانيين، ومن تلقى عنهم، أيام الأسبوع؛ بخلاف الترك ونحوهم؛ فإنه ليس في لغتهم أيام الأسبوع ((لأنهم لم يعرفوا ذلك فلم يعبروا عنه)).

لم يمكن أن يفهم المراد باللفظ حتى يكون قد تصور ذلك المعنى قبل ذلك. [الرد على المنطقيين، ص١٠]

المتكلم باللفظ المفرد إن لم يبين للمستمع معناه حتى يدركه بحسه أو بنظره، وإلا لم يتصور إدراكه. [المجموع ج٩ ص٤٩]

أما فتجنشتين، فسألخص المائة صفحة الأولى له في كتاب بحوث فلسفية:

ينتقد فتجنشتين التعليم الإشاري للطفل، بكونه أشبه بلعبة الشطرنج، فلا يمكن تعليم مسمى الحصان في اللعبة حتى يفهم قواعد اللعبة أصلًا!

وأكد أن اللعبة وقواعدها هي السياق، والألفاظ داخلة فيها، تكتسب بالملاحظة، أي أن الطفل كمشاهد الفيلم الملاحظ للجميع، فتصور لفظ مفرد بدون مشهد (قيد) =غلط، كلمات مثل: لكن أو غيرها لا تكتسب إلا بسياق، بمعني آخر: التسمية تعني: هذا الشيء اسمه كذا! وهو تصور كما ترى.
وهذا كلام نفيس منه ولا ينكر التعليم الإشاري لكن كمرحلة متقدمة.

والفصل القديم بين اللغة والفكر خطأ ـ فالفكر واللغة سلوك لا ينفصل، فالطفل يلاحظ ويتعلم ويفكر ويحاول الكلام في وقت واحد، فاللغة هي المسببة في نوع من الفكر يتميز به الإنسان عن الحيوان، وعبر عن ذلك بجملته البليغة: عالمي هو حدود لغتي.

وقد ثبت ذلك تجريبيًّا، وأكد تشومسكي أن بدون اللغة سينتابنا قصور فكري نشبه فيه الحيوان. [انظر مثلًا لتجربة فيلبس: المتشابهات الفلسفية لمجدي الجزيري، ص١١٤، ودراسات في اللغة والعقل، لتشومسكي].



وأتبع ذلك بملاحظة جيدة بقوله: كيف يعرف الطفل أنك تشير إلى الشكل أو اللون حين تعلمه معنى وردة أو صندوق مثلًا؟! نعم يمكن الإشارة أو اللمس أمامه لكن يحدث قليلًا، وكيف يعرف الطفل أننا نريد تسمية الحصان ولا نريد تسمية المربع الذي فيه؟ بل كيف يميز بين البسيط والمركب وهل المربع أبسط شيء في الشطرنج؟!

إن كلمة معرفة ووجود وغيرها معناها حسب وجودها في اللعبة اللغوية، فهل الحصان يعني شيئًا خارج الشطرنج؟! انظر فقرة ٢ كلام ابن تيمية.

ثم أطنب بنقد قوي جدًّا للتفرقة الكبيرة بين المركب والبسيط، ونقد أن الطفل يفهم البسيط ويسميه أولًا ليس هنا مكان بسطه، ولكنه مهم. فليراجع ص ٧٩ وفيه رد على ابن جني بطريقة أخري غير طريقة ابن القيم.

أيضا هناك توسعة للسياق بسياق أكبر وهو السياق المجتمعي ودور المجتمع، تكلم عنه مالينوفسكي لكن لا يهمنا هنا.

تأمل:
الملاحظة عند فتجنشتين وابن تيمية والمجازيين في تعريف أسرار البلاغة ص ٥٩٢: المجاز كل كلمة أريد بها غير ما وقت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول.

القرينة العدمية = المشهد المعتاد

التكلم باللفظ مجردًا قيد: ولهذا يشترط في دلالته الإمساك عن قيود خاصة، فالإمساك عن القيود الخاصة قيد، كما أن الاسم الذي يتكلم به لقصد الإسناد إليه مع تجريده عن العوامل اللفظية فيه هو المبتدأ الذي يرفع، وسر ذلك تجريده عن العوامل اللفظية، فهذا التجريد قيد في رفعه، كما أن تقييده بلفظ مثل: «كان» و«إن» و«ظننت» =يوجب له حكمًا آخر.

ولهذا كان المتكلم بالكلام له حالان: تارة يسكت ويقطع الكلام ويكون مراده معنى. وتارة يصل ذلك الكلام بكلام آخر بغير المعنى الذي كان يدل عليه اللفظ الأول إذا جرد. فيكون اللفظ الأول له حالان: حال يقرنه المتكلم بالسكوت والإمساك وترك الصلة. وحال يقرنه بزيادة لفظ آخر. ومن عادة المتكلم أنه إذا أمسك أراد معنى آخر؛ وإذا وصل أراد معنى آخر، وفي كلا الحالين قد تبين مراده وقرن لفظه بما يبين مراده. [المجموع، ج٢٠ ص ٤١٣]

الفقرة الخامسة

ما فائدة اللفظ؟!

عند فتجنشتين، هو الإشارة للمتشابهات العائلية، فكلمة لعبة مثلًا تجمع عائلة كرة القدم والسلة والشطرنج وغيرها، والمشترك بينهم والمختلف كالشبكة المتداخلة في المعنى، ودور اللفظ لفت الذهن للمتشابه.

وفي هذا يقول ابن تيمية: ميز كل مسمى باسم يدل على ما يفصله من الجنس المشترك، ويخصه دون ما سواه، ويبين به ما يرسم معناه في النفس. [الفتاوي ج٩ ص ٥٨]



علم التفسير
وسؤال المنهجية

عمرو الشرقاوي

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على نبيه وعبده، وآله وصحبه من بعده، أما بعد:

فإن علم القرآن العظيم: هو أرفع العلوم قدرا، وأجلها خطرا، وأعظمها أجرا، وأشرفها ذكرا، وإن أحق ما صرفت إلى علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضا، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وإن أجمع ذلك لباغيه، كتاب الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مرية فيه، الفائز بجزيل الذُّخر وسَنَى الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. [مقدمتي الطبري، وابن جزي].

ما السؤال ؟

إنا لنشكو في هذه الأزمان من العشوائية في طلب العلوم على اختلافها، وعلم التفسير من العلوم التي أخذت نصيبها من تلك العشوائية، وقد ظهر مؤخرًا - بحمد الله - توجه للبحث عن المنهجية لتحل بدلًا من العشوائية، ولكن فريقًا انشغل بالسؤال عن (ماذا)، وأصبح هذا السؤال من معوقات التحصيل أيضًا!! وفي هذه المقالة لن يكون الاهتمام بسؤال (ماذا أقرأ؟)، ولكن سأحاول الإجابة - أكثر - عن سؤال (كيف أقرأ؟).

إن علم التفسير ليس كغيره من العلوم التي وجدت فيها متون يترقى الطالب فيها من متن يصور مسائل العلم، إلى آخر يصور المسألة مع إقامة الدليل، إلى ثالث يضيف دفع الشبهات عن الدليل، وتحرير المسألة .

ولذلك فلا بد أولًا من سؤال ينبني عليه طبيعة الكتب التي ستقرأ، وطريقة القراءة، وهو ما الهدف من قراءتك لكتب التفسير ؟، واختصارًا فإن الناس ينقسمون في قراءة كتب التفسير إلى:

١- مريد لمعرفة معنى الآية الإجمالي، مع إدراك شيء من لطائفها، ليفهم كلام ربه سبحانه وتعالى، إذ كيف يلتذ بكلام الله من لا يعرف معانيه ؟!!

٢- طالب علم يريد - إضافة إلى ما سبق - الترقي في هذا العلم كما يترقى في غيره من العلوم.

فأما الأول، فإنه بحاجة إلى أمرين:

١- إدراك غريب القرآن، ويكفيه ما يعينه على إدراك معنى الكلمة من أقرب طريق، ككتاب الشيخ العلامة / مخلوف، أو كتاب د. الخضيري (السراج في بيان غريب القرآن).

٢- إدراك المعنى الإجمالي، وهناك كتب ألفت في هذا المجال، وهي كتب يسيرة سهلة، ككتاب التفسير الميسر، أو المختصر في التفسير، أو تفسير العلامة السعدي.

فإن أردا أكثر من ذلك فعليه بمختصرات التفسير، كمختصرات ابن كثير، مع الاستعانة بالكتب التي تهتم بذكر لطائف الآي، ومن الإصدارات التي تفيد هذه الطبقة، كتب الشيخ العلامة/ فريد الأنصاري، والمبدع الأستاذ/ إبراهيم السكران، وإصدارات مركز تدبر.

أما الثاني - وهو موضوع المقالة -، فيحتاج أن يسلك طريقًا تعينه على إدراك مراده، وذلك ما سأجتهد في إبرازه في الآتي، فأقول:



أولًا: إن طالب العلم بحاجة إلى معرفة الفرق بين التفسير وبين المعلومات الموجودة في كتب التفسير، فليس كل معلومة موجودة في كتب التفسير هي من صلب علم التفسير، إذ كل علم له بالقرآن تعلق، وقد يستطرد المفسر في علم برع فيه، فيتكلم عليه في سياقات كلامه عن الآيات.

ثانيًا: إذا علمت ذلك، فإن أولى ما تتوجه إليه العناية أن تعتني بالمعاني، فالتفسير في حقيقته، هو إدراك معاني القرآن، وهي - لعمري - ليست بالهينة، وليس الخبر كالمعاينة وقد يعسر على صاحب الوجد أن يصف الصبابة وصفًا يحقق ما في نفسه في نفس قارئه، فاطلب = تجد.

ثالثًا: أول ما تهتم به - رعاك الله - أن تدرك أمرين اثنين:

١- إدراك غريب القرآن، ومن أيسر كتبه (السراج للخضيري)، وأجلها (مفردات الراغب).

٢- إدراك المعنى الإجمالي، فاهتم بالكتب التي تصور المعنى في ذهنك تصويرًا صحيحًا، وابتعد عن الكتب التي كتبت بالأسلوب الإنشائي، فإنها ستشوش عليك ذهنك، ومن الكتب التي أقترحها لك، (التفسير الميسر - المختصر في التفسير - تفسير ابن جزي ط. المنتدى - تفسير ابن أبي زمنين ط. الفاروق، - تفسير الإيجي، جامع البيان ط. غراس).

ومما أختاره وأشجع عليه، أن لا تكتفي في هذه المرحلة بكتاب واحد، بل كن ذا همة، واجمع بين كتابين من كتب التفسير لئلا تتعنى في المرحلة التالية، وهما: (التفسير الميسر، وتفسير الإمام ابن جزي الكلبي ط. المنتدى الإسلامي).

كذلك فابتعد عن بعض الكتب التي راج أنها كتبت للمبتدئ، وإنما غرهم قصرها، وهي في الحقيقة من الكتب التي تحتاج إلى عالم ماهر لما فيها من إلغازٍ واستغلاق، ككتاب الإمامين الجلالين، وكتفسير القاضي البيضاوي.

وفي هذه المرحلة عليك أن تطالع شيئًا في أسباب النزول، مع تكرار قراءة أصلك في التفسير أكثر من مرة، حتى ترى أنك قد استظهرته لتنتقل إلى ما بعده .

واحذر في هذه المرحلة من أن تعيقك الإشكالات، أو الاستطراد في غير فهم المعانى.

رابعًا: بعد هذه المرحلة يلزمك لزامًا أن تطلع على كتب أصول التفسير، وعلوم القرآن، ومناهج المفسرين [راجع: جهود الأمة في أصول التفسير، علوم القرآن تاريخه وتصنيف أنواعه، كلاهما للشيخ د. مساعد الطيار].

خامسًا: بعد هذه المرحلة التي تكون قد أدركت فيها:

١- المعنى الإجمالي، مع معرفة الغريب .

٢- وأدركت طرفًا من علوم القرآن وأصول التفسير، ومناهج المفسرين .

٣- مع دراستك لمبادئ العلوم الشرعية، إذ هن إخوة لعلات .

فأنت مؤهل للدخول في المرحلة التالية، وأهم ما ينبغي عليك أن تفعله:

((أن تعرف الأقاويل في التفسير)).

وهذا يا رعاك الله، دأب أهل التحقيق من المفسرين، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية فيما حكاه ابن رشيق يقول: ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير، ثم قال ابن رشيق: فكتب الشيخ نقول السلف مجردًا عن الاستدلال، على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال، ورأيت له سورًا وآيات يفسرها ويقول في بعضها: كتبته للتذكّر، ونحو ذلك. [الجامع: ٢٣٨].

ومن الكتب المرشحة لهذه المرحلة، كتاب الإمام ابن الجوزي، (زاد المسير، ط. المكتب الإسلامي، أو دار الفكر)، وهو أحد الكتب التي كان يعتمدها الشيخ تقي الدين.

وفي هذه المرحلة، إما أن تعتمد على قراءتك وذهنك، وإما - وهو المختار - أن تلخص الأقوال مع الاعتناء بتحفظها، ونسبتها إلى أصحابها .

وفي هذه المرحلة، اهتم بمطالعة بعض كتب التفسير المناسبة لمرحلتك، ككتاب الإمام الحافظ أبي الفداء ابن كثير، وكتاب التفسير للإمام ابن أبي حاتم، والدر المنثور للحافظ السيوطي.

والجامع لهذه الكتب هي الاهتمام بجمع الأقاويل في الآيات، مع ما في بعضها من التحرير .

ولا تصلح مذاكرة هذه المرحلة مرة واحدة، ولذلك فأنت لو وضعت زاد المسير كأصل لهذه المرحلة، فاجعل لك مع كل مذاكرة له، أحد كتب التفسير الأخرى المعينة على شيء من التحرير.



سادسًا: وبعد تلك الرحلة - أيها الموفق - فعليك بكتابين عظيمين جليلين، لإمامين من أئمة هذا الشأن، أحدهما الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، وكتابه جامع البيان، الذي قال فيه، ((حدثتني به نفسي وأنا صبي، وقال: استخرت الله تعالى في عمل كتاب التفسير وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين قبل أن أعمله فأعانني.

وقال بعضهم: رأيت في النوم كأني في مجلس أبي جعفر والناس يقرؤون عليه كتاب التفسير، فسمعت هاتفا بين السماء والأرض يقول: من أراد أن يسمع القرآن كما أنزل فليسمع هذا الكتاب)). [معجم الأدباء لياقوت].

وأما ثاني الأئمة فهو المحقق الفقيه القاضي الإمام أبو محمد ابن عطية، وكتابه المحرر الوجيز، الذي قال في مقدمته، وهي كالشهد حلاوة فارجع إليها: ((وأنا وإن كنت من المقصرين فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيرا من علم التفسير، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير، وعمرت به زمني، واستفرغت فيه مني.

إذ كتاب الله تعالى لا يتفسر إلا بتصريف جميع العلوم فيه، وجعلته ثمرة وجودي، ونخبة مجهودي، فليستصوب للمرء اجتهاده، وليعذر في تقصيره وخطئه وحسبنا الله ونعم الوكيل.))، وكم أتمنى أن تقف على تلك المقدمة، لتشاهد مطالع الأنوار، وما احتوت عليه من أسرار.

فابدأ بكتاب الإمام ابن عطية، فافهمه، وقلِّبه، واجعله سميرك، فهو كتاب مؤسِّس لا يستغني عنه طالب هذا العلم الجليل، وهذا الكتاب يحتاج إلى نظر دقيق، وتأمل أنيق .

أما تفسير ابن جرير، فإني أستعفي من الكلام عنه في هذه المقالة.

وعليك في أثناء قراءتك، بالاعتناء بالتالي:

١- معرفة أقوال السلف، مع ضبط ما حدث بعدهم من الأقوال الصحيحة المحتملة.

٢- القواعد العلمية التي يستخدمها العلماء من أهل التحقيق .

٣- طريقة الوصول للمعنى .

٤- مناقشة الاختلاف بين المفسرين، مع توجيه أقوال السلف خصوصًا عند ابن عطية .

٥- التعرف على منهجية المفسر، وهي مهمة جدًا في إدراك المؤثرات على المفسر، كعقيدته، أو توجه تفسيره .

ومما ينبغي الاهتمام به، الاهتمام بتطبيقات علوم القرآن في كتب المفسرين، وإنما - نبهت على هذا - لأن كتب التفسير تحتوي على تطبيقات لا توجد في مصنفات علوم القرآن .

نصائح عامة:

١- اقصد البحر وخل القنوات، وأعني بهذا أن تعتني بأصول الكتب لا مختصراتها، فإن كثيرًا من المختصرات من شأنها، أن تبعد عنك الاستفادة من منهجية التعامل مع مشكلات التفسير، وذلك كأن تقرأ مختصرًا لابن كثير (على جودة بعض مختصراته)، فستضيع عندك فائدة تعامل الإمام مع أسانيد التفسير، وهي من الدقائق .

٢- الإشكالات في كتب التفسير كثيرة، ولذلك فاحرص على تجاوز هذه الإشكالات، وعدم الإغراق فيها، بل كلٌّ بحسبه .

٣- اجعل لك كتابًا يكون أصلًا تضيف إليه فوائد الكتب الأخرى أثناء قراءتك، بحيث تستطيع أن تستظهر الأقوال وتوجيها من خلاله .

٤- لا بد من العناية بالتعرف على منهج السلف، ومن سار على منهجهم من خلال التطبيقات العملية التي يقومون بها في تفاسيرهم.

٥- اعتن بتطبيق أصول التفسير على ما يقرأ من التفسير.

٦- معرفة المنهج العام للمفسر، والربط بين معلومات الكتاب، وهذا مما يعين في فهم ما يستغلق من كلام المفسر، وكذلك الرجوع إلى موارد المفسر الأصلية إن أمكن، فقد يتبين من خلال ذلك خطأ في فهم المفسر لمن نقل عنه، كما أن بعض المفسرين يختصر بعض الأخبار والآثار مما قد ينبهم على من يقرأ كلامه، فإذا عاد إلى أصوله التي نقل منها توضح هذا الإبهام. [مستفاد من مقال، للشيخ مساعد الطيار].

٧- عليك بقراءة كتب أهل التحقيق من المفسرين ومنهم: (الطبري - ابن عطية - ابن تيمية - أبو حيان - ابن كثير - الشنقيطي - ابن عاشور).

وأخيرًا، لا تحسبن طريق العلم ميسورًا لأهل التكاسل، بل إنه لن يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وقديمًا قال ابن معطي:

وَ بَعْدُ فَالْعِلْمُ جَلِيلُ الْقَدْرِ ... وَفِي قَلِيلِهِ نَفَادُ الْعُمْرِ
فَابْدَأْ بِمَا هُوَ الأَهَمُّ فَالأَهَمُّ ... فَالْحَازِمُ الْبَادِئُ فِيمَا يُسْتَتَمُّ
فَإِنَّ مَنْ يُتْقِنُ بَعْضَ الْفَنِّ ... يُضْطَرُّ لِلْبَاقِي وَلاَ يَسْتَغْنِي

هذا، ودونك البحر فانهل، وعن دعوة لأخيك لا تغفل، والحمد لله المحمود في كل حال، والصلاة والسلام على نبيه والآل.



رأس أدواء القلوب

مهند المعتبي

اللّهُمَّ املأ قلوبَنا إجلالًا وتعظيمًا ومحبةً لك، وأُنسًا وسُرورًا واطمئنانًا بك، وخشيةً وخوفًا ورهبةً منك، ورجاءً وطمعًا ورغبةً فيك.

وبعد:

فهذه خاطرةٌ عجلى، أكتبُها والقلبُ بكلِّ وادٍ منه شعبة، اقتضاها نصٌّ صادقٌ لأبي حامدٍ الغزالي رحمه الله يأتي ذكرُه لاحقًا، وقد كشفَ لي حقيقةً لطالما حاولتُ سبرَ غورِها، ومعرفةَ سِرِّها؛ فوقعتْ على قلبي كالسلسبيل العذب على فمِ العطشان، وكالماء الزلال على كبد الظمآن، فللهِ أنت يا أبا حامد!

ومن نافلةِ القول أنَّنا نعلم يقينًا أنَّ القلبَ محلُّ نظر الربِّ، وأنَّ العنايةَ به، وإقامةَ نقاط التفتيش حولَ أسواره، وصيانتَه من كلِّ زغلٍ ودغلٍ= عُنوانُ فلاحِ العبدِ وسداده، وإهمالَه ولو ساعاتٍ فضلًا عن الأيام والليالي- مُؤذِنٌ بكثرة الهوام والآفات والاستيحاش، وفي شأنه يقول أبو حامد: «فمعرفة القلبِ وحقيقةِ أوصافهِ= أصلُ الدين، وأساس طريق السالكين». [الإحياء (٥/ ١١)]

فالعلم بكون القلبِ تعتوِرُه الأمراض والأدواء؛ علْمٌ يشترك فيه النَّاس، لكنَّ معرفةَ دقائق الأمراضِ ومراتبها ودرجاتها مما اختصَّ به الأكياس.

وأمراض القلب متفاوتة كتفاوتِ أمراض الجسدِ، فإذا اشتدَّ مرضُ القلبِ -وهو المرض المخوف- لم يجد صاحبُه أُنسَه إلا في المعصية، ولا لذَّتَه إلا في المخالفة، فلا تُؤلمه جراحاتُ القبائح، ولا يُؤنِسُه العملُ الصالح!

وإن خفَّ المرضُ؛ فأقلُّ أعراضِهِ البئيسةِ تغافُلُ صاحبه عن الطاعات، وانشغالُه بالملهيات، وسَكْرَتُه عن المهمَّات.

لنَعُدْ إلى أصلِ حديثنا ومحوره؛ فالحديثُ عن القلبِ وتفؤُّدِه حديثٌ يطول، كفانا فيه الربَّانيُّون معرَّة التكلُّف، ومغبَّة التصنُّع، وتقحُّم المباهاة، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله!

حينما تبحث عن أدواءِ القلوب لمن تنزَّه عن الفواحش والقاذورات -وما أكثر الأدواء لمن هذا حاله؛ لأنه نصيب الشيطان منه- فإنك ستجد أدواءً وغوائلَ لا تنحصر، كأدواء القلبِ المحضة؛ ومنها: الكبر، والعُجْب، وغَمط الناس، ومحبَّة الثناء، والكسل، ونحوها، أو الأدواء الخارجيَّة المؤثرة على استقامة القلب وتجرُّدِه للمراتب العليَّة؛ كالإفراطِ في الفضول والمباحات، ومنها: كثرة الأكلِ، والنومِ، والخُلطةِ، فإنَّ لها تأثيرًا على قسوةِ القلبِ عجيبًا.

السؤال الآن: ما رأسُ أدواء القلوبِ التي تعيقُ سيرَ العبدِ الحثيثَ نحوَ الطاعات، والمسارعة في الخيرات؟
وإيضاحه: ما الداءُ الذي أقعدَ بمن صلَح ظاهرُه، واستقام باطنُه، لكنَّه جامدُ العين، قاسي القلب، ظامئ الروح، ضعيف الشوق، بطيء النهوض؛ فلا تكاد تنضبطُ له نفْسٌ، أو ترسخ له قدمٌ في طريق العبادة؛ مع ما يجد من نفسه من انقباضٍ عن المحرَّمات، وإقامةٍ للفرائض والواجبات، وحِرصٍ على النوافل والمستحبات، وحُبٍّ للعلم وأهله، ومعرفةٍ بشرفه وفضله، ومحاولةٍ دؤوبةٍ لمجاهدة النفسِ ومعرفةِ سرِّ هذا الصدود؟!

ومزيدُ إيضاحه: هل تجدُ -كما أجد- قعودًا عن الطاعاتِ مع رغبةٍ شديدةٍ في إتيانها؟
هل تستطيعُ -كما أستطيع- سردَ فضائلِ قيام الليل مثلًا، وما أعدَّه الله لأهله، وكيف كان حرصُ السلف والأئمةِ على ملازمته، ثم تعجزُ -كما أعجزُ- عن قيامٍ بركعتين يسيرتين لا تأخذُ نصفَ ساعة؟!

فأيُّ أدواء القلب قد تكفَّل بهذا القعود؟!

هذا مربطُ الفرس، ورنَّة الجرس، ومحور الكلام، وشفاء الأوام، وفي العلمِ بالداءِ نصفُ العلاج، عافاني الله وإيَّاك.

فاجأني أبو حامدٍ رحمه الله بذكر تجربته في هذا الأمر، بعد أن جرَّبَ حلولًا، وتلمَّسَ أدويةً (وأبو حامدٍ عارفٌ في هذا الفنِّ، بل واضعُ لبِناتٍ كثيرةٍ في هذا العلم بعدَ تجرُّدٍ وزُهدٍ وعُزلةٍ وهجرٍ لرسوم العلم وشكليَّاته التي اكتفى بها خلْقٌ عن حقيقته، وكثيرٌ ممن كتبَ في السلوك بعدَه عيالٌ عليه في أشياء كثيرة، وابنُ القيِّم -وهو أجلُّ علمًا بأحوال السلف، وأرسخ في الاعتقاد- تأثَّر به كثيرًا ألفاظًا وأفكارًا ومضامين في (فقه الوعظ)، بل ينقل الصفحات عنها كثيرًا دون عزو.

ومَن قرأ أبا حامدٍ بعد ابن القيم أو العكسِ؛ علِمَ أيَّ أثرٍ له عليه، مع عدم ادِّعاء عصمة أبي حامد من الزلل البيِّن، أو البدعة الكلاميَّة، والله يغفر له، وللكلام عن أبي حامدٍ وعن نظريَّته العلميَّة والسلوكيَّة موضعٌ لاحقٌ بإذن الله).

الشاهدُ في مسألتنا أنه رحمه الله ذكر تجربةً عجيبةً في رياضتِه نفسَه، ومحاولته اكتشافَ السرِّ الغامض، والسبب الرئيس، والداء العُضال في عدم انضباطِ نفسه له..

أنقلُهُ لك بحروفه مع شيءٍ من الاختصار، وهو نصٌّ ساقه الشريفُ محمد بن الحسن الواسطي في كتابه «المطالب العليَّة في مناقب الشافعيَّة»، وهو مخطوطٌ لم يُطبع، استلَّت منه (دار المنهاج) الحجازيَّة ما يتعلق بترجمة أبي حامد، فأثبتَتْه في مقدِّمة تحقيقها الفذِّ لـ«إحياء علوم الدين»، وهو أنَّه كتب لأحد إخوانه:

«والواعظ واعظانِ: ناطقٌ، وصامت، فالناطقُ القرآن، والصامتُ الموت، وفيهما كفايةٌ لكلِّ متَّعظ...
ولقد وعظتُ بهما نفسي؛ فصدَّقت وقبِلَتْ قولًا وعقدًا، وأبتْ وتمرَّدت تحقيقًا وفِعلًا...
ثمَّ ما ارعوَتْ، بل أصرَّت على الميلِ إلى العاجلة واستمرَّت..
ثمَّ أقبلتُ عليها فوعظتُها بالواعظ الصامت... فقالت: صدقت.

فكان ذلك منها قولًا لا يحصلُ وراءَه عملٌ؛ إذْ لم تجتهدْ قطُّ في التزوُّدِ للآخرة، كاجتهادها في تدبير العاجلة، ولم تجتهدْ قطُّ في طلب رضا الله تعالى كاجتهادها في طلب رضا الخلق!

ولـمَّا رأيتُها متماديةً في الطغيان، غيرَ مشفقةٍ بوعظِ الموتِ والقرآن= رأيتُ أهمَّ الأمورِ الفحصَ عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها، فإنَّ ذلك من العجائب العظيمة، فطال عنه فحصي حتى وقفتُ على سببِه، وهو طول الأمل!

وها أنا موصٍ نفسي وإيَّاه بالحذر منه؛ فإنه الداء العُضال، وهو السبب الداعي إلى الغرور والإهمال، وهو اعتقاد تراخي الموت، واستبعاد هجومهِ على القُرْب فانكشفَ تحقيقًا أنَّ مَن أصبح وهو يأملُ أن يُمسي، أو أمسى وهو يأملُ أن يصبح= لم يخْلُ من الفتورِ والتسويف، ولا يقدرُ إلاَّ على سيرٍ ضعيف!

فمن غَلَبَتْ على قلبه في كلِّ صلاةٍ أنها آخر صلاةٍ =حضرَ معه قلبُه في الصلاة، وتيسَّر له الاستعداد للموت، فيجِدُّ في أنواع الطاعات.

ومن عجَز عن ذلك؛ فلا يزال في غفلةٍ دائمةٍ، وفتورٍ مستمرٍّ، وتسويفٍ متتابع إلى أن يدركه الموت، وتهلكه حسرةُ الفوت!...». ا.هـ

فللهِ هذا الكلام! ما أصدقَه وأنصعَه وأحسنَه!

وشهودُه العدولُ في القرآن والسنة لمن تطلَّبهم، فتأمَّل أبلغ عتابٍ نزل على الصحابة بعد إسلامهم بأربع سنواتٍ فقط في شأن الخشوع وقسوة القلب في آية سورة الحديد، وتدبَّر كيف قرن الله فيها طولَ الأمدِ بقسوةِ القلب!

وعَضَّ على هذه الجملةِ بناجذك: «مَن أصبح وهو يأملُ أن يُمسي، أو أمسى وهو يأملُ أن يصبح =لم يخْلُ من الفتورِ والتسويف، ولا يقدرُ إلاَّ على سيرٍ ضعيف». فإنها مُخرَّجةٌ على قولِ الصاحب العابد ابن عمر: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء». وانظر أثرها الصادق على إقبالنا وإدبارنا.

فهذا الداءُ وهو طول الأمل والتطامن إلى الدنيا وكأنها دارُ بقاء؛ هو ما أقعدَ بالأرواح عن اللحوقِ بالصادقين!

وما زَرَعَ شيءٌ «طولَ الأملِ» في القلبِ وأنبتَه وسقاه؛ كالغفلةِ أو الذنوب، فأمَّا الذنوبُ فإنها إذا «تراكمت؛ طُبِعَ على القلبِ، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين، ويستهين بأمر الآخرة، ويستعظم أمرَ الدنيا، ويصير مقصورُ الهمِّ عليها. وإذا قرع سمعَه أمرُ الآخرةِ وما فيها من الأخطار =دخل من أُذُنٍ وخرج من أُخرى، ولم يستقر في القلب، ولم يحرِّكه إلى التوبة والتدارك»! [الإحياء (٥/ ٤٥)]

وأمَّا الغفلةُ؛ فإنها شرٌّ حذَّره الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وما اجتثَّها من القلبِ شيءٌ كذكر الله، وتذكُّرِ الآخرة؛ فإنَّ «مَن شاهد الآخرة بقلبه مشاهدةَ يقين =أصبح بالضرورة مُريدًا حرثَ الآخرة، مشتاقًا إليها، سالكًا سبلَها، مستهينًا بنعيم الدنيا ولذاتها، فإنَّ من كانت عنده خرزةٌ فرأى جوهرةً نفيسةً؛ لم يبقَ له رغبةٌ في الخرزة، وقويت إرادتُه في بيعها بالجوهرة». [الإحياء (٥/ ٢٦٣)]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّـهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّـهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]



فاطمة والمبشِّر

[من مذكرات ماري التي سربها الموت]

محمود توفيق

في إحدى حالاتي التمثيلية الغريبة والمتقنة، توجهت لمعرض الكتاب بعباءة خليجية سوداء، بعد أن جهزت نفسي وارتديت العباءة والطرحة في (كوافير ...) كالعادة؛ فـ(الكوافير) هو المكان الوحيد الذي يتم فيه تبديل الملابس بغير أي حرج، بينما يثير الأمر امتعاضًا واستغرابًا إذا ما تم التبديل في دورات المياه بالمطاعم و(المولات)، كما يحدث من بنات الثانوي المتعجِّلات للنضج.

خرجت من عند مدام (ش) وهي تحييني تحية خليجية على سبيل المعاونة على التقمص، وكالعادة لم تسأل زبونتها غريبة الأطوار عن السبب في تغيير الزي والملامح؛ وأعتقد أنها تظنني مريضة بانفصام في الشخصية، لكن الأمر يبدو مسليًا لها.

ودخلت إلى معرض الكتاب وأنا متقمصة شخصية مسلمة سعودية، وقد صدَّقت نفسي إلى درجة عالية، كنت من أب سعودي وأم مصرية، هذا ما ادَّعيته لبعض من تعمدت التعرف عليهن في سرايا المعرض لاختبار مدى توفيقي في التقمص، هذا الادعاء سمح لي بالاحتفاظ بقدرتي على إقناع الآخرين طالما أنني لا أتقن اللهجة تمام الإتقان.

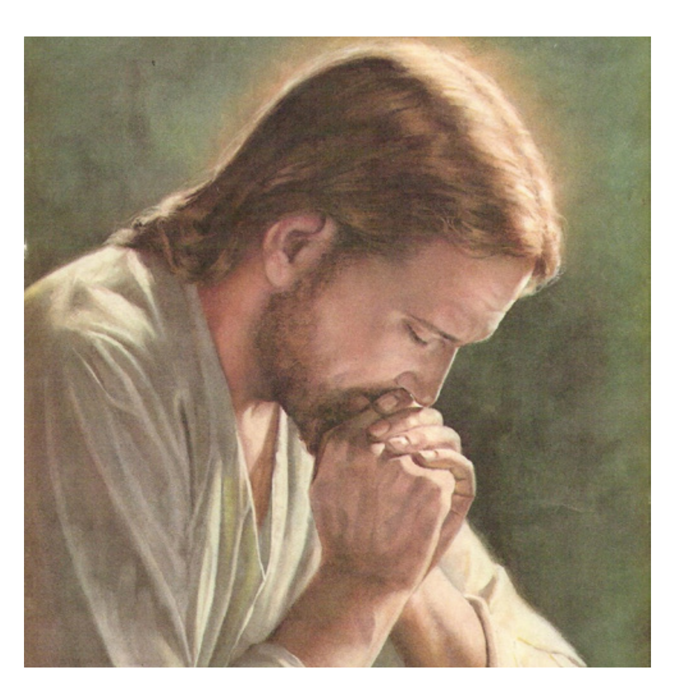
وبعد أن اطمأننت لكوني مقنعة، ظهرت أمام أحد المبشرين الشباب عند (...)، وأنا أعرف جيدًا أنه سيلحظني، وسيتحفز للتعرف إليَّ، ثم سيتفرغ لي، فالأنثى هي الأكثر جذبًا للاهتمام والحماس فيما يتعلق بالاستمالة الدينية، ويهيَّأ لي أن الأمر كذلك عند المسلمين. والتبشير في القادمين من صحراء الجزيرة العربية الذين لم تصلهم رسالة المسيح أكثر جذبًا للاهتمام أيضًا بالمقارنة ببقية العالم، وخصوصًا أهل السعودية، وأنا أجمع بين الميزتين، أنثى وسعودية، فلن يمر من هنا من هو أغلى مني.

لذا وقفت قليلًا أدندن وأنا أنظر للكتب، وأدلل نفسي بالشعور الذي يسيطر على الزبون (اللقطة) الذي لا يمكن التفريط فيه، الزبون الذي يعرف أن أحدًا ما سيهرول إليه ويترك كل أشغاله. ورسمت على وجهي تلك الملامح لإنسانة ليست على عجلة من أمرها، تتصف بالمرونة والفضول.

وبالفعل تقدم (ج.ب) للتعرف إليّ بطريقة رقيقة فيها مسحة من (الراسبوتينية)، ورددت على ترحابه بلهجة خليجية. وادعى أن له أصدقاء كثيرين من الخليج، وسألني عن جنسيتي، فقلت له إنني سعودية من أم مصرية، فقال إنني إذن لست ضيفة لأني من أم مصرية، وكذلك لأني سعودية، فابتسمت.

واندفعت كفتاة تلقائية ما قلبها على لسانها وقلت إنكم كمسيحيين لا ترتاحون لنا نحن السعوديين، وتسموننا الوهابيين كما يسمينا بعض المسلمين؛ فنفى بشدة أن يكون من هذا الصنف ضيق الأفق، فالعنصرية مرفوضة تمامًا، واستدل بأعمال الرسل «٣٤ ففتح بطرس فاه وقال: بالحق أنا أجد أن الله لا يَقبل الوجوه. ٣٥ بل في كل أمة، الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده» [أعمال ١٠ :٣٤-٣٥]، وقال إنه يعرف من خلال المعاشرة أن الصورة الذهنية عن السعوديين كمتشددين فيها تعميم سخيف، ففيهم الكريم والمضياف، والمتسامح، والتعميم لا دين له، وكل شعب وكل ملَّة بها من يكرهون الآخر، وقال إنه تلقى دعوة كريمة على العشاء منذ ثلاثة أيام في مطعم في المهندسين وأكل (المندي) وأعجبه جدًا، فخفت أن يسألني عن طريقة إعداده، ثم قال إنه يحب البخور كما يحبه السعوديين، وإن حب البخور يجمع ما بين الأرثوذكس والخليجيين، هذا بالإضافة لما يجمع بين الرهبان والخليجيين من حب الخلاء والبرِّ والبعد عن صخب المدينة.

لا شك أنه كان مستعدًا بشكل جيد للتأثير على الخليجيين، عن طريق إبداء قدر عالٍ من التقدير لثقافتهم ونمط حياتهم، بدون التورط بكلمة واحدة في صالح الإسلام نفسه، وأنا بطبيعة الحال لم يكن لدي ما يمنع من التصريح بإعجابي بمصر وأهلها.



وأذكر في حواري معه ابتسامة الذين يشعرون بالظلم التي ارتسمت على وجهه، عندما قلت له إنني سمعت أن المسيح كان يتعبد إلى الله علانية، ولم يصرِّح بأنه إله في أي إنجيل من الأناجيل، فلم تتبرعون بعبادة شخص لم يأمركم بذلك؟ لقد ابتسم ابتسامة من أصابه الملل من كثرة ترديد مقولة غير صحيحة، وقال: (خدعوك فقالوا)، ثم ذكر قول المسيح في إنجيل يوحنا «أنا والآب واحد»، قاله بملء الفم واثقًا من سطوته كدليل نصي.

فاخترت أن أمثل نفس صدمة (م س) عندما كلمته عما قاله فرعون وورد بالقرآن، وقلت له: (هو قال كذا؟! أنا والآب واحد؟!)، فهز رأسه كأنما أشفت صدمتي غليله من ادعاءات المسلمين المهتمين بمناظرة المسيحيين بأن المسيح لم يصرِّح بالألوهية، ثم نكَّست رأسي ومثلت دور إنسانة تعرضت لهزة قوية، وأخذت أنقل نظري بين عناوين الكتب المسيحية كأني مشتتة وفاقدة لشيء من توازني.

وعلى الرغم من أنني جئت بهذه الشخصية المسلمة لترفع عني الحرج في الجدال، إلَّا أن هذه الشخصية التي اخترعتها استنذلت وارتجلت وخرجت عن الدور المرسوم؛ لقد وجدت نفسي راغبة في الاستمتاع قليلًا بدور الفريسة، أن أرى نشوة الزحف البطيء في عينيه، ربما لأني لم أتمكن أبدًا من زحزحة أي شخص مسلم ولو قليلًا عن عقيدته، ولم أتمتع بهذه اللحظات الجميلة من الإحاطة الواعية والمدروسة بشخص آخر، لم ألعب هذا الدور الإيجابي على الإطلاق، فارتضيت أن أتمتع بمعايشة هذا النجاح عن طريق قبول تمثيل دور الفريسة الثمينة، عن طريق هذه البنت السعودية كحيلة العينين التي اختلقتها، لقد صُدِمت بأن الشخصيات التي نؤلفها تفضل أن تمارس درجة من الاستقلال بعد إطلاقها.

تلفتُّ حولي كأني قلقة بعض الشيء، وقلت له إن لي صديقات من نفس جنسيتي سألتقي بهن بعد نصف ساعة هنا، ومن الضروري أن لا يشعرن بأن هناك شيئًا غريبًا يحدث، فهز رأسه متفهمًا، ووعدته بأني سأمر عليه بالغد لأسمع منه كل ما عنده، فابتسم ابتسامة عريضة، وقال إنه يشعر أن المسيح يناديني ويرغب في التحدث إليّ، ورجاني أن أرهف السمع للسيد المسيح بعض الوقت حينما أسمع بندائه يروح في أعماقي، وقال لي إن هذه لحظة تساوي العمر كله، فأُخذتُ قليلًا حتى كأنني مسلمة بالفعل سحبتها الكلمات التي ينطقها بصوت مؤثر، فيما لاحظت وقوف إسلامي نحيف ببذلة كاملة ولحية بالقرب منا، يراقب الموقف وقد بدت عليه علامات الاستفزاز والغيرة الشديدة، مما جعلني أشعر بالقلق من هذه الغيرة ومما قد تؤدي إليه، وتراجعت خطوة لأحافظ على مسافة رصينة من المبشِّر، قلقت من هذه الغيرة قلقًا لا يخلو من استلطاف لها.

قلت لـ(ج ب) إنني أرغب في فهم بعض الأشياء في عجالة بخصوص هذا القول للمسيح الذي جعلني أشعر أن الأمر لم يكن كما كنت أسمع، إنني أرغب في أن أفهم شيئًا ما قبل أن أمشي: هل هذه المقولة للمسيح «أنا والآب واحد»، تعني تحديدًا أنه الآب نفسه، أي هو الابن والآب في نفس الوقت؟ ألا يبدو هذا متناقضًا؟

فابتسم ابتسامًا تشجيعيًا واثقًا كمن تلقى سؤالًا من طفلة تحاول ترتيب أفكارها البسيطة، وقال لي إنه سيشرح غدًا بهدوء وخطوة خطوة كيف أن المسيح ليس الآب، ومع ذلك فهو بسر الثالوث العظيم هو الإله الواحد، وكذلك فإن الآب هو الإله الواحد.

فقلت له إن هذا يبدو مستعصيًا على الفهم البشري، أن يكون كل منهما هو الله الواحد، ومع ذلك فالآب غير الابن؛ وشردت في اتجاه الأرضية كمن يفكر، وأنا واثقة تمام الثقة من أنه لن يستطيع شرح كيف يكون الثلاثة واحدًا والواحد ثلاثة، لا في الغد ولا في الدورة القادمة من المعرض.

ثم قلت له تعالَ نستقبل الكلام بطريقة بسيطة، لعل المسيح يقصد أنه والله في إيمان واحد يجب أن يعتنقه الناس، هذا الإيمان باقة واحدة (One package)؛ فمن آمن بالله ولم يؤمن بالمسيح لم ينفعه إيمانه، مثلما تجمع شهادة التوحيد الإسلامية عندنا بين ذكر الله وذكر محمد، وخصوصًا أن المسيح مرسل لشعب يؤمن بالله بالأساس، وقلت -بمكر-: يبدو لي أن هذا القول موجه لبعض اليهود ممن عاصروا المسيح، فأراد أن يقول لهم إنه بوجوده وتكليف الله له لم يعد ممكنًا على المؤمنين بالله إلا أن يؤمنوا بهما معًا، هذا وإلا لن ينفعهم إيمانهم، وأن من يرفضه كأنه يرفض من أرسله، تمامًا مثلما أن من رفض موسى في عهده كأنه رفض الله الذي أرسله.

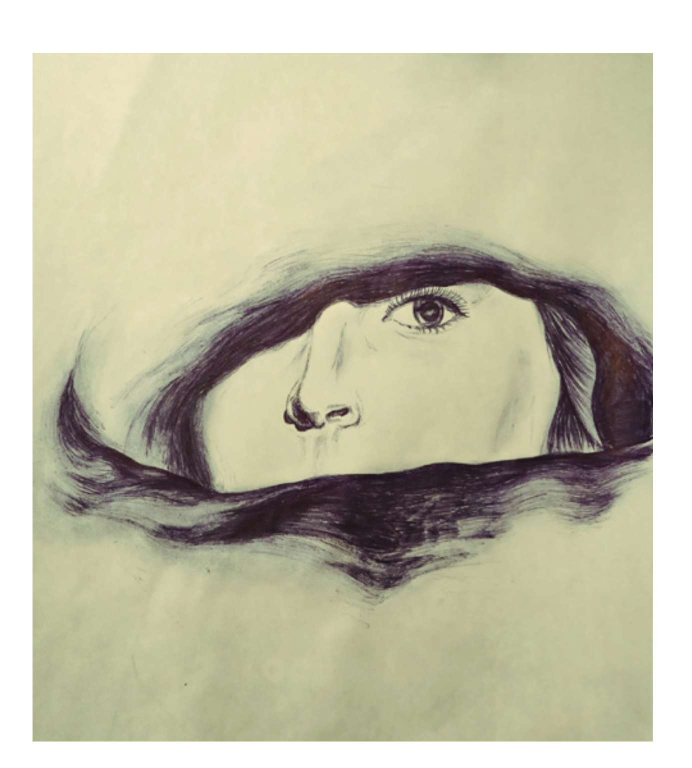
فابتسم ابتسامة من يشفق على الذي يبحر في بحر لا يعرفه، وقال لي: واحدة واحدة يا آنسة فاطمة.. لا تستعجلي. رغم أن ما ادعيت استنتاجه من أن الكلام كان موجهًا ليهود هو معلومة لا شك فيها؛ هو تلاعب عندما لم يعلق على ملحوظتي هذه بشأن اليهود، التي توقعت عليها تعليقًا مادحًا لذكائي ونباهتي، ولكن ليس لي أن ألومه طالما أنني أغش بشأن الاستنتاج، أنا تلصصت على أحد أوراق لعبه، وتصرفت كأني أخمنها، وهو لم يصدق على صحة تخميني.

أهداني نسخة من الكتاب المقدس نظرت لها كمن يتعرف إليها لأول مرة، وجعلت يديّ ترتعشان قليلًا وأنا أتناول منه الكتاب، أهداني النسخة وهو يقول: إن أمامك الكثير لتعرفينه، ومن هنا للغد اختلي بنفسك واقرئي في هذا الإنجيل، وصلي لله من قلبك وقولي له يا رب عرفني ذاتك، وتأكدي أنه سيرفع الغمامة عن عينيك، سيعلن نفسه لك لو فتحتِ قلبك، وستفهمين كل الأمور التي تعتقدين أنها مستعصية على الفهم، وأنا من ناحيتي سأصلي من أجلك كثيرًا.



فقلت له بهدوء و(رخامة): هل كان كلام المسيح موجهًا لتلاميذه أم لليهود كما توقَّعت؟ إذ كنت أشعر باستفزاز من تجاهله لملحوظتي. فقال لي: إن كل ما قاله المسيح سواء في هذا الموضع من الإنجيل أو غيره هو لنا نحن في جميع الأحوال، كل كلمة قالها كأنه قالها في أذن كل واحد من المؤمنين به، لكن بالفعل كان من حوله في هذا الموقف بعض اليهود، وهذا لا يعني أن فكرة (باقة الإيمان) هي السبب في أن يقول إنه والآب واحد باعتباره مجرد نبي.

ورغم أنني كنت جاهزة لمحاصرته بأسلوب مدروس وهادئ، إلَّا أنني لم أرغب في ذلك، لم أرغب في تكديره، كنت مستمتعة بتفاؤله التبشيري، تفاؤله الذي سيؤكد له بعد ذهابي أن الروح القدس هيَّأ الأجواء بيني وبينه وساعده على قطع شوط جيد في وقت قياسي مع زبون خاص، إنه سيتمتع بعد قليل بإحساس مشعٍّ بالرضا عن الذات، كنت -بالبلدي- كما يقول الناس عن الباعة البسطاء (عايزة أنفَّعه)، لذا قلت له إننا افتتحنا حوارًا جيدًا سنكمله في الغد، وسأسجل أفكاري في ورقة وأقدمها له في لقائنا، وعندي استعداد لأن أستمع لكل ما عنده، فهز رأسه مبتسمًا، وقال لي: أنتِ إنسانة شجاعة! وأخذ يتكلم بنفس الحماسة التي تنتاب بائعًا للموسوعات في مصر وجد أخيرًا زبونًا واعدًا، بينما شردت أنا فيما يمكن أن يصدر من الشاب الملتحي.



مضيت من أمام (ج ب) وأنا أسرع الخطا بعد أن اعتذرت إليه لكوني لا أستطيع إعطاءه رقم جوالي، مضيت وحدي وقد سيطر عليَّ شعور بأن المسلم الملتحي الذي يرتدي بذلة يتتبعني، وحاولت إقناع نفسي أن هذا مجرد وهم، لكني التفتُّ ووجدته ورائي بالفعل يتابعني بنظرات جادة، فراوغت بين الكتل البشرية وأنا أشعر باضطراب، وبعض الدوار من الزحام والضجيج، حتى فطنت إلى أنه يجب أن أتوارى في غابة من مرتديات السواد مثلي، ودقيقة واحدة وكنت منهمكة في التقليب الشكلي في رفوف إحدى صالات دور النشر الإسلامية بين كتلة متماوجة من المنقبات والمحجبات، بين من تسأل عن كتاب مسند الإمام الفلاني، ومن تقترح كتاب (العلل) أو ما شابه.

وشردت في إمكانية توفر حاسة ما ورائية نشيطة لدى المتدينات المتحمسات يمكنهن أن يكتشفن بها أن تلك الغائبة بينهن ليست مسلمة، تمامًا مثلما تسيطر على المسلمين فكرة أن المسلم المتسلل بين حشد من المسيحيين داخل الكنيسة يمكن للقس بحاسته الما ورائية أن يكتشفه، فيقول: يوجد بيننا هنا أحد (المحمديين). أفقت من شرودي ووجدت صاحب البذلة يستدير بعد أن افتقدني وينصرف إلى حاله سبيله، والغريب أنني شعرت بالأسف!

كان يرغب بالتأكيد في معاتبتي على أن أعطيت أذني لمبشِّر مسيحي شاب، ولم يكن بإمكاني أن أفاجئه إن تواجهنا بأن هذه التي تقف أمامه بغطاء رأس كأي مسلمة، وترتدي قفازين، ليست إلَّا شابة مسيحية متنكِّرة سمعت الكثير من كلام المبشرين؛ لم يكن ليستوعب أني ذهبت إلى المعرض لرغبتي في رؤية الأمور من زاوية أخرى تمنحني الاستقلال، لممارسة حقي في رؤية المسيحية من الخارج، وحقي في التعرض للتبشير حتى لو كنت مسيحية أبًا عن جد.

فاطمة التي اخترعتها أثارت أسفًا ومضت عند شابين متدينين كأنهما حارسا حدود متواجهان بين دولتين توترت بينهما العلاقات، انتباه مفرط، وفي ذات الوقت قدرة عالية على التحكم في الأعصاب حتى لا ينفجر الوضع؛ وهذا تأسف لأنه لم يتمكن من اللحاق بها لنصحها، ثم هذا بالتأكيد تأسف في اليوم التالي لأنها لم ترجع في الموعد المتفق عليه.



إنهما لا يدريان أن من أثارت فيهما الحسرة قد ماتت مساء أمس ببساطة، عند خلاط المياه في كوافير مدام (ش) الصبور غير المتسائلة.



رسالة عتاب إلى كل زوج

هبة عمرو

منذ أن كانت طفلة صغيرة، كانت تنظر إلى كل عروسٍ بسعادةٍ وإعجاب، وتحلم باليوم الذي ترى فيه نفسها هي العروس، وأنت عريسها.

كانت تحلم أن تلبس فستان الزفاف، وتجلس إلى جانب ذلك الرجل الذي طالما انتظرته، ذلك الرجل ستعتبره مشروع حياتها، دنياها وأخراها، مشروعها إلى الجنة.

كانت تدرك تمامًا أنك أهم مشروع؛ فماذا تفيدها الدكتوراه إن لم تجد سكنها آخر اليوم بجانبك؟
وماذا تفيد الوظيفة إن لم تحيا معك المودة والرحمة؟
وماذا ستفيدها كلمات الإعجاب والتشجيع من جميع مَن حولها إن لم تسمع إطراء منك؟
كبرت، وكنت أنت بطل كل أحلام يقظتها؛ فمنذ أن عرفتك، منذ أن دققت على باب بيتهم، صرت أنت الرجل، وجميع الرجال مجرد كائنات من حولها.

منذ أن عرفتك وهي تتعامل بأريحية أكثر مع جميع الرجال من حولها، صح هذا أم خطأ ليس موضوعنا؛ فكل ما في الأمر أنهم لا يعنون لها شيئًا منذ أن عرفتك، كم صدت من غزل، تصريح أو تلميح، نعم طاعة لله، لكن حفظًا لك أيضًا.

كم خططت لإسعادك، كم بحثت وقرأت، وسعت لتتعلم، كم وقفت أمام المرآة تعلِّم نفسها فن التجميل بالتجربة والخطأ، كم تفقدت كل حاسة من حواسك وجهزت لها ما يسرها، كم لبست من ملابس وأحذية غير مريحة، كم تحملت من آلام جسدية، فقط لتكون جميلة في نظرك.

نعم هي تحب أن تكون جميلة لنفسها، لكن جمالها في عينيك أسعد، كم تصفحت من مجلات ومواقع تبحث عن تسريحة الشعر الأنسب لوجهها، عن تصميم (الموديل) الأنسب لجسدها، والأحب إلى ذوقك، كم دققت في اختيار عطرها زهرة زهرة، أزهرة الياسمين أشذى؟ أم فاكهة التوت البري؟ أتحب العطر العربي أم الفرنسي؟ كم بحثت عن أجمل الأزياء التي تظهِر جمالها خصيصًا لك أنت، فقط أنت، نعم هي تحب أن تكون أنيقة لنفسها، لكن أناقتها في عينيك أبهى.

كم بحثت عن وصفات أشهى الأطباق التي تحبها، ولم تتناسَ صحتك يا حبة القلب، مشت على قدميها تنتقي أفضل المكونات، ثم وقفت تطهوها لك، كم حرصت أن يكون الطعام طازجًا وساخنًا وقت وصول حبيبها، كم كانت تعلم أن العين تأكل قبل الفم أحيانًا، نعم هي تحب الطهي لكن الطهي لك أمتع.

كم احتملت من آلام في حملها وفي وضعها، كم سهرت وتعبت واشتكى جسدها، طفل تلو الآخر، رعاية، تربية، تمريضًا، تعليمًا.

نعم كانت تحلم أن تكون أمًّا، لكن أمًّا لأولادك أنت لا سواك، نعم تحب فلذات أكبادها؛ لكنها أيضًا تحب تلك الأسرة التي كانت تحلم بها معك، أسرة تكون أنت سيدها وأميرها.

كم انتظرتْك ولم تأتِ، كم استمعت لحديثك وشجعتك، كم جلست بجانبك تشاهد ما تحب أنت، وتستمع لاهتماماتك أنت، فقط مؤانسةً لك، كم قدمت رأيك على رأيها، كم أخفت من معلومة تعرفها قبلك، أتعلم لماذا؟ لأن خفض الجناح معك ألذ وأبقى.

قل لي بالله عليك، ما الذي يساوى دمعة من عينيها بسببك؟ قل لي بالله عليك، ماذا جنت ليصيبها ألـمًا



بسببك؟ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

هل كنت تعلم هذا أم أنك لا تعلم؟

هل وصلك فقط إزعاج طفلكما ولم يصلك ألمها وحاجتها إليك بجانبها؟

هل شاهدت فقط ما أصاب جسدها من عيوب بعد الحمل والرضاعة، ولم تشاهد ابنكما يكبر بصحة وعافية؟

بل لم تشاهد جسدك أنت؟

بالمناسبة: هل تحب جسدًا له روح؟ أم روحًا لها جسد؟

هل انزعجت بشدة من صراخها لابنكما، ولم يسعفك ذكاؤك للحظة أن تدرك أنها لساعات طويلة لم تنم، بل لم تجلس، بل -عفوا- لم تقض حاجتها! نعم يحدث ذلك يا سيدي لا تستغرب، هل تعلم كل ما مضى أم أنك انشغلت عن ملاحظة ذلك، واكتفيت بالبُعد عن «مصادر الإزعاج»؟

هل شغلتك مباريات كأس العالم؟ أم شغلك أصدقاؤك؟ أم شغلك عالمك الافتراضي بكل ما فيه من نكات ومعجبات هنا وهناك بلا وزن زائد ولا إزعاج أطفال؟!

هل وُلِدت زوجتك هكذا؟ أم أنها ثمار الارتباط بك؟

هل بذلْتَ (أنت) ربع ما بَذَلَتْ (هي) من جهد ووقت لن أقول لإسعادها بل سأقول: لمساعدتها على إسعادك؟

أم أنك لجأت للأسهل: الاستجابة لأول مُصَفِّقة لجميل ما تكتب، ولطيف ما يظهر منك لعوام الناس؟

أتذكُر فقط ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؟ وتنسى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؟

أتذكر فقط «هو جنتكِ ونارِكِ»، وتنسى «خيركم خيركم لأهله»؟

هل حافظت على «خير متاع الدنيا»، أم أنك لم تصبر «على طعام واحد» وظللت تلهث خلف متاع الدنيا؟

أعلم أني ربما قسوت عليك الآن؛ لكن عذري أني أراها كل يوم، أراها في زميلات العمل، في الجيران، في صديقاتي، في أقاربي، وهي صامتة؛ بل ضاحكة صامدة، فقررت أن أكتب عنها، لعل صوتها يصل، لمن بقي له قلب يسمع.

واعلم أني اكتفيت اليوم بعتابك كزوج، ولم أتطرق بعد للأب، إن كان في العمر بقية، فلنا لقاء آخر.

تمضي الحياة بدونك نعم، لكنها معك أسكن.
ملأى الحياة بالآلام نعم، لكن الألم منك أوجع.